المُنفرِجتان

المنفرِجة الأولى

شعر

يوسف بن محمد التوزري (ابن النحوي)

(٤٣٤ - ٥١٣ هـ)

شرح

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري

(٨٢٤ - ٩٢٦ هـ)

المنفرِجة الثانية

شعر

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)

دراسة .. وتقديم

الدكتور عبد المجيد دياب

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات.
مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥ - رقم بريدي: ١١٣٤١ هليوبوليس.
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت: ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص.ب: ١٥٧٦٥ - ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:

دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدار البيضاء - عبد الكريم الخطابي
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39

جميع الحقوق محفوظة للناشر

تقديم

« المنْفَرِجَة » قصيدَتانِ مشْهورتان فى الاسْتِغاثة والتوجّه إلى الله فى الشّدَائد ، والكروب ، والمِحَن ، وطلَبِ الفرَجِ ، والعفْو ، والنّجاةِ من الله تعَالى ، والإلْحَاحِ فى الطّلب ، والقسم علَى اللَّهِ بالمغفرة والرحمة من حرِّ النّار ، وعمُومِ النفْع .. ودعاءٍ وابْتِهَالٌ إلَى الله تعالى ، وحَدِيثُ لوْمٍ ، وعتابٍ ، ونُصْحٍ للنّفْس . ودعْوةٌ للاقْتِداء بالنّبى صلّى اللَّهُ عليه وسلّم ، وبآله وصحَابَتِهِ .

وتتداخَلُ بعضُ أبْيات « المنْفَرجتَيْن » فى بعْضٍ . إذ القصيدتان رويّهما واحد (جيميتان) وبحرهما واحد والأُولَى منْهما مطْلَعُها :

الشـدَّةُ أوْدَت بالمُـهَجِ يَا رَبّ فَعَجِّـلْ بالفـرج !

ومطلعُ الثّانية :

اشْـتَدِّى أزمَـة تَنْفَـرِجِى قَـدْ آذَنَ لَيْـلُكِ بالْبَـلَجِ

* * *

وقد نُسبت القصيدتَانِ إلى الإمام الغزالىّ ، ونسبت الثانية منهما إلى غير واحد غير صاحبها وغير الغزالى .

والتّحقِيقُ علَى أنّ قصيدةَ « المنْفَرجة » التِى تسْتَهلُّ بالمطْلع :

اشْـتَدِّى أزمَـة تَنْفَـرِجِى قَـدْ آذَنَ لَيْـلُكِ بالْبَـلَجِ

ليست للإمام الغزالى ولا لغـيره .. ولكنها للتّوْزرى . المعروف بـ « بابن النحـوىّ » .

وقد أكد ذلك كل من ترجموا للتوزرى ، كما أكده شارحها الشيخ زكريا الأنصارى .

* * *

أما القصيدة الأولى التى تستهل بالمطلع :

الشـدّة أودت بالمُهـجِ ياربّ فعجـلْ بالفَـرَج

فهى للإمام الغزالى .

والغزالى والتـوزرى كانا متعاصرين ، لكن الغزالى مشْرقىّ ، والتوزرى مغْربىّ .

توفى الغزالى سنة ٥٠٥ هـ ، وتوفى التوزرى سنة ٥١٣ هـ .

والتوزرى تتلمذ على « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى كما سترى ، والراجح عندى أن (منفرجة) الغزالى هى التى قيلت أولًا . و(منفرجة) التوزرى هى التى قيلت بعدها .

لكن لأمْرٍ مَا شاعت الثانية وذاعت ، واشتهرت أكثر من الأولى ، وتعـدد شرّاحها .

ولهذا قدّمناها مع شرحها للشيخ زكريا الأنصارى داعين الله المثوبة .

فإن أصبنا فالحمد لله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٦ /٥ /١٤٢٠هـ

١٩٩٩/٨/١٧م

الدكتور عبد المجيد دياب

الأضواء البهجة

في إبراز دقائق المنفرجة

شرح

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري

(٨٢٤ - ٩٢٦ هـ)

على القصيدة المشهورة بـ (المنفرجة)

للعارف بالله تعالى أبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف

التوزري الأصل المعروف بـ (ابن النحوي)

(٤٣٤ - ٥١٣ هـ)

دراسة .. وتحقيق

الدكتور عبد المجيد دياب

يوسف بن محمد بن يوسف التوزرى

ويكنى « أبو الفضل » .

مغربىّ ، توزرِىّ الأصل[1] والمولد .

من قلعة بنى حماد .. أخذ صحيح البخارى عن اللّخْمى ، والمازرى ، وأبى زكريا الشقراطيسى ، وعبد الجليل الربعى .

وكان عارفًا بأصول الدّين والفقْه ، له تآليف .. وأخذ عنْه القاضى أبو عمْران . موسى بن حمّاد الصّنْهاجى[2] .

وأقرأ النحو ، أخذه عنه أبو محمد عبد الله بن سليمان التاهرتى[3] .

وأبو عبد الله محمد بن الرمامة . مفتى فاس ، والأخوين الفقيهين : أبو بكر ومحمد خلف الله .

وكان من العُلَماء العاملين ، وعلى سنَنِ الصّالحين ، مجابَ الدّعوة ، حاضِرًا مع الله فى غالِبِ أمْرِه ، لهُ اعْتقادٌ تامٌّ بـ « إحياء » الغزالى .

ولما أفتى الفقهاءُ بحرْقِ « الإحْياء » فأُحْرِق فى صحْن مراكش ، ووصل كتاب السّلطان بذلك ، وتحليفُ النّاسِ بغَلظِ اليمين أن ليْسَ عنْدهم « الإحياء » .. انتصر وكتب للسلطان ، وأفْتى بعدَمِ لزوم تِلْك الأيْمان .

ونسَخَ « الإحياء » ثلاثين جزءًا ، يقوم كل يوم فى رمضان بنسخ جزء قائلًا : ودِدْتُ أنى لم أنظر فى عمرى سواه[4] .

---

(١) **توزر** : مدينة فى أقصى إفريقية من نواحى الزاب الكبير . (معجم البلدان ٨٩٢/١) .

(٢) راجع : ابن الأبار . تكملة الصلة ٧٤٠

(٣) البغية . الترجمة رقم ٢١٩٦

(٤) نيل الابتهاج .

قال القاضى أبو عبد الله بن على بن حماد : « كان أبو الفضْل ببلادِنَا كالغزاليّ فى العِراق عِلْمًا وعمَلًا »[1].

وكان معاصرًا للإمام الغزاليّ ، وإن كان قد توفِّىَ بعده ببضْعةِ سنين .

والتّوْزرِىّ هذا هو : يوسف بن محمد بن يوسف . ولد بمدينة توزر سنة ٤٣٤ هـ ، كما ذكر الشيخ محمد النيفر فى كتابه « عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسيّة من عالِمٍ أدِيب » وذكر نص المنفرجة معزوة إليه فى ترجمته وإن جاء فى « الأعلام » للزركلى ، و « معجم المؤلفين » لكحالة أن مولده سنة ٤٣٣ هـ ، كما جاء فى « معجم المطبوعات » لسركيس أن مولده كان سنة ٤٥٣ هـ .

وكان التوزرِىّ من حفّاظِ حديثِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، كما اشتهر بالفقه والتبحّر فيه ، وجمع إلى ذلك الزهادة فى الدنيا ، والبُعْد عن سؤال الناسِ ، والتعويل عليهم ، والاتجاه إلى الله تعالى ، والتعويل عليه فى أمره كله .

وله شعر دُوِّنَ بعضُه فى كتاب (نيل الابتهاج . للتنبكتى) منه :

أصْبَحْتُ فيمَنْ لهُمْ دِينٌ بِلَا أدَبٍ وَمَنْ لهُ أدَبٌ عارٍ مِنَ الدّينِ
أصبحْتُ فِيهِمْ غَرِيبَ الشّكْلِ مُنْفَرِدًا كبَيْتِ حَسّانٍ فِى دِيوانِ سَحْنُون

ورَوَى له الإمام السيوطى فى « بغية الوعاة »[2] ثلاثة أبيات من الشعر يقول فيها مخاطبًا بعض الرؤساء الأغنياء :

---

(١) راجع : نيل الابتهاج للتنبكتى (١ ، ٦٢٢/٢) طبع منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس سنة ١٣٩٨ هـ = ١٩٨٩ م .

(٢) الترجمة (رقم ٢١٩٦) فى البغية .

عَطَاءُ ذِى العرْشِ خَيْرٌ مِنْ عَطَائِكُمُو وسَيْبُهُ وَاسِعٌ يُرْجَى ويُنْتَظَرُ
أنْتُم يكَدّر ما تُعْطُون مَنَّكُمُو واللَّهُ يُعْطِىَ فَلَا مَنٌّ ولَا كدَرُ
لَا حُكْمَ إلّا لمَنْ تَمْضِى مشِيئَتُهُ وفى يدَيْهِ عَلَى ما شاءَه القَدَرُ

كما روى له صاحب « نيل الابتهاج » أبياتًا دالية فى تضرعه إلى الله فى تهجده يقول فيها[1]:

لبسْتُ ثوْبَ الرّجا والناسُ قَدْ رقدُوا وقمْتُ أشْكُو إلى مَوْلاىَ ما أجِدُ
وقلت : يا سيّدى يا منتهى أمَلِى يا مَنْ علَيْه بكَشْفِ الضر أعْتَمِدُ
أشكُو إليْكَ أمورًا أنْتَ تَعْلَمُهَا مَا لِى علَى حَمْلِهَا صَبْرٌ ولَا جَلَدُ
وقَدْ مدَدْتُ يَدِى بالضّرِّ مشتكِيًا إلَيْكَ يا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إلَيْهِ يَدُ

* * *

قال أبو العباس بن التعاويسى :

وتوفى بقلعة الحمادية سنة ثلاث عشرة وخمسمائة[2]، وقبره مشهور بها بالبركة . وذكرا صاحبى الأعلام ومعجم المؤلفين لوفاته هذا التاريخ .

أما صاحب معجم المطبوعات العربية فقد ذكر أنه توفى سنة ٥٤٣ هـ .

* * *

(١) ذكر هذه الأبيات – أيضًا – الشيخ محمد النيفر فى كتابه (عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب) .

(٢) وهذا ما ذكره الشيخ محمد النيفر أيضًا فى المرجع السابق .

قصيدة المنفرجة

للتـــوزرى

لعل نسبة قصيدة المنفرجة إلى الإمام .. أبى حامد الغزالى ، لا إلى قائلها الأصلى التوزرى « ابن النحوى » جاءت من أثر المعاصرة الزمانية بين الرجلين ، ولو لم يكونا من أهل إقليم عربىّ واحد ، فقد كان التوزرِىّ من أعلام الشّمال الإفريقىّ : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وليبيا ، فى عهد الطوائف فيها ، على حين كان الإمام الغزالى فى بغداد فى عصر السّلاجقة .

على أن هناك سببًا آخَر قدْ حمَل بعض الناس على أنْ يعْزُوا قصيدةَ « المنفرجة » إلى الغزالِىّ ، بدلًا من نسبتها إلى قائلها الأصلى : التوزرى .. وهو ما كان من المشابَهَةِ فى العَمَل والعِلْم بيْن الغزالى والتوزرى على اختلاف داريهما .

على أنّ هذهِ الموازَنة بين الاثنين ، قدْ تكونُ مِن باب « التعصّب الإقليمى » المحلِّى بيْن أقْطارِ الوطَن العربىّ الكَبِير . كما نجد ذلك فى الموازنة بين الشاعرين : ابن هانئ الأندلسى : شاعر المغْرب .. وبين الشاعر أبى الطيب المتنبى شاعر المشرق . فقد كان أهل المغرب يتعصّبُون لابْن هانئ ، وتمنّوا لو طالَ أجلُه حتى يفاخِرُوا به أهْلَ المشْرِق .

ولسنا الآن بمعْرِض الموازنة بيْن الغزَالى والتّوْزرى ، فليس تحْتَ أيدينا مصنّفاتُ هذَا ، على الرّغم مِمّا قِيلَ من أنّ لهُ مصنّفات فلم أقف له فى دار الكتب المصرية إلا على :

١ - إنذار البهجة فى ظهور كنوز المنفرجة . مخطوط رقم ١٢٨٢ تصوف طلعت .

---

(١) طبقات الشافعية ٥٦/٨ - ٦٠

٢ - شرح القصيدة المنفرجة . مخطوط رقم ٤١٧٥٣ مجاميع .

٣ - تخميس : بانت سعاد ، لكعب بن زهير . مخطوط رقم ٦٤٦٨ أدب .

* * *

يقول السبكى صاحب « طبقات الشافعية » : رأيت فى كتاب « الغرَّةِ اللائحة » لأبى عبد الله محمد بن على التوْزرى ، المعروف بابن المصرى : أن هذه القصيدة لأبى الفضل يوسف بن محمد النحوى التوزرى . قال : وذلك أن بعض المتغلّبين عدَا علَى أمواله وأخذها ، فبلغه ذلك ، وكان بغير مدينة توزَر .. فأنشأها ، فرأى ذلك الرجل فى نومه تلك الليلة رجلًا فى يده حرْبَةٌ وقال له : إن لم ترُدَّ على فلانٍ أمْواله ، وإلّا قتلتك بهذه الحربة ، فاستيقظ مذْعُورًا ، وأعادَ عليْه أمْوالَه » .

« قلت (السبكى) : وكثيرٌ من النّاس يعْتقد أن هذه القصيدة مشتملة على الاسم الأعظم .. وأنّه ما دعَا بِهَا أحَدٌ إلّا اسْتُجِيبَ له »[1] .

« وكنتُ أسمَعُ الشيخَ الوالِد رحمه الله إذا أصابته أزمة ينشدها .

وقد شرحها طائفة من الأدباء والمتصوفة[2]، وشرحها بالتركية الشيخ إسماعيل بن أحمد الأنقروى المولوى المتوفى سنة ١٠٤٢ هـ وسماه « الحكم المندرجة فى شرح المنفرجة » .

وآخر مَنْ شرَحَها فضيلة الشيخ حسنين مخلوف . مفتى الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء[3] .

---

(١) ذكر ذلك أيضًا صاحب كشف الظنون ١٣٤٦/٢ .

(٢) راجع شرّاحها فى كشف الظنون .

(٣) هو المحدّث الأصولىّ الشيخ حسنين محمد مخلوف ، أحد أقطاب جامع الأزهر ، عرف بالنسك والورع والعلم ، ولد يوم السبت سنة ١٣١١ هـ الموافق ١٨٩٠/٥/٦ م بباب الفتوح بالقاهرة وحصل على العالمية سنة ١٩١٤ م ، ومدرسة القضاء الشرعى ، وعين قاضيًا شرعيًّا سنة ١٩١٦ م ، ثم عُين رئيسًا لمحكمة الإسكندرية الشرعية سنة ١٩٤١ م ، وأخذ بمناصب القضاء حتى عين مفتيًا لمصر =

وسمى شرحه : « شفاء الصدور الحرجة بشرح القصيدة المنفرجة »[1].

قال فى مقدمته : « المنْفَرِجة . من المنْظومات المباركة التى تسْتَرْوِح بها النفوس ، فى طلب تفْرِيج الكرُوب ، وكشْف الخطوب ، من علاّمِ الغيوب ، ولذا سماها التاج السبكى « الفَرَجُ بعدَ الشدّة » وقال : إنها مجرَّبَة لذلك .. ويستجاب بها الدعاء هنالك .

وكان يردِّدُها فى الشّدائد العلاّمة محمّد بن زكريّا الأنْصارِى ابن شيْخ الإسلام زكريّا الأنصارى رحمهما الله .

وقد تضمنَتْ من العقائِدِ والحقائِقِ ، والفَوائِدِ والدّقائق ، والفرَائِد والرّقائق ، ما بهِ شرْحُ الصّدُور ، وصفاءُ القلوب ، وإرْواء الغُلّة ، وشفاء العِلّة ، وبلوغ المقاصد ، من الأحوال السَّنِيّة ، والمقامات العليّة .

* * *

وشرحها كثيرون : منهم الإمام شيخ الإسلام . أبو يحيى زكريا الأنصارى السُّنَيْكى المصرى المتوفى سنة ست وعشرين وتسعمائة هـ شرحها شرحًا وافيًا ، سماه « الأضواء البهجة فى إبراز دقائق المنفرجة .

وعنى فيه ببيان ما اشتملت عليه من المجازات والاستعارات والمحسنات البديعية ...

= سنة ١٩٤٥ م حتى عام ١٩٥٠ م ، وعين للمرة الثانية مفتيًا لجمهورية مصر العربية من عام ١٩٥٢ م حتى عام ١٩٥٤ م . ووافته المنية فى ١٥/٤/١٩٩٠

وشيعه خلق كثير يتقدمهم العلماء والوزراء ويتصدرهم شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ومفتى جمهورية مصر العربية آنذاك الدكتور محمد سيد طنطاوى .

(١) ملتزم الطبع والنشر مكتبة ومطبعة الحلبى بمصر ، وقد طبعت عدة مرات آخرها سنة ١٩٦٦م ، كما طبعت على نفقة جمعية النهوض بالدعوة الإسلامية عدة مرات آخرها الطبعة الثالثة سنة ١٩٨١ م مطبعة المدنى .

« وقد كان لى عهْدٌ منْذُ الصِّبا بهذهِ المنْظومَة المبارَكة ، فبدَا لِى فى إبّان الشّيْخُوخة أنْ أجدّد العهْدَ بها . فقرأتها ... ثم عن لى أن أشرحها شرحًا لطيفًا ، مختصرًا واضحًا لا تعرُّضَ فيه للمباحث البيانية ولا للمحسنات البديعية ، ولا للمعانى الإشارية .. وأكملْتُه فى شهر صفر سنة ١٣٨٥ هـ[1] خمس وثمانية وثلاث مائة وألف » اهـ .

* * *

والقارئ لهذا الشرح يرى أن الشيخ حسنين مخلوف استفاد بشرح سابقه الشيخ زكريا الأنصارى .

وبالتالى فقد رأيت ألا أحرم القارئ رأى شيخ فاضل مثل الشيخ حسنين مخلوف فذكرت ما يراه ، موضوعًا تحت العلامة (*) .

والقصيدة محققة بمعرفة الشيخ زكريا الأنصارى شارحها ، فقد راجعها على أكثر من نسخة فكان يقول : « وفى نسخة كذا » ، وفى « نسخة كذا » وشرحها شرحًا وافيًا شافيًا عنى فى شرحها ببيان ما اشتملت عليه من علوم البديع كالمقابلة ، والطباق ، وحسن التعليل ، وبراعة المطلع وغير ذلك الكثير .

* * *

(١) الموافق ١٩٦٥ م .

شيخ الإسلام
زكريا الأنصارى

زكريا بن محمد بن أحمد [1] بن زكريا الأنصارى ، السُّنيْكى ، القاهرى ، الأزهرى ، الشافعى .

يلقب « زين الدين » ، ويكنى « أبو يحيى » .

يذكره صاحب بدائع الزهور قائلًا : « شيخ الإسلام والمسلمين ، مفتى الأنام فى العالمين ، بقية السّلف ، وعمْدةُ الخلَف ، عالِمُ الوجُود علَى الإطْلاق ، وذِكْره قدْ شاعَ فى الآفاق ، فهو آخِر عُلَماء الشافعية ، بالدّيارِ المصريّة ، انتهت إليه رئاسة الشافعية » .

وكان مولده سنة أربع وعشرين وثمانمائة [2] ، ومات يوم الأربعاء ثالث شهر ذى الحجة .

---

(١) رواية بدائع الزهور : « زكريا بن محمد بن محمد بن زكريا الأنصارى » ، والمذكور هو ما ذكرته سائر المصادر .

(٢) فى البدر الطالع ، وفى الشذرات ، ومعجم المؤلفين : أنه ولد سنة ٨٢٦ هـ وتوفى سنة ٩٢٥ هـ وفى بدائع الزهور ونظم العقيان ولد سنة ٨٢٤ هـ وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وفى الكواكب السائرة ، وأعلام الزركلى أنه ولد سنة ٨٢٣ هـ وهى إحدى روايتى الكواكب السائرة ، وفى رواية سنة ٨٢٤ هـ وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وفى هدية العارفين (٨٢٤ - ٩٢٦) والمذكور هو رواية ابن إياس فى بدائع الزهور وهى أولى بالإثبات لأن المعاصرة تجمعهما .

ترجمته فى : الكواكب السائرة . للبدر الغزى ١٠/١٩٦ - ٢٠٧ ، وشذرات الذهب . لابن العماد ٨/١٣٤ - ١٣٦ ، والبدر الطالع . للشوكانى ٢/٢٥٢ - ٢٥٣ ، والنور السافر . للعيدروسى : ١٢٠ - ١٢٥ ، نظم العقيان . للسيوطى : ١١٣ ، وكشف الظنون . لحاجى خليفة : ٤١ و ٤٧ و ٩٢ و ١٥٢ و ١٥٦ و ١٨٨ ... ... إلخ .

إيضاح المكنون . لإسماعيل البغدادى : ١/١٠١ و ٢٥٥ و ٢٦١ و ٤٣٦ و ٤٧٥/٢/١٤٤ و ١٦٧ و ١٧٧ : المجددون فى الإسلام . للصعيدى ٣٤١ و ٣٤٣ ، وبدائع الزهور . لابن إياس ٥/٣٧٠ ، والطبقات الكبرى للشعرانى (زكريا) رقم ٥

ومات وله من العمر مئة سنة وسنتان بعدها .

وسُنيْكة : بليدة من شرقية مصر .

حكى الشيخ الشعرانى عن الشيخ زكريا [1] قوله : « جئت من البلاد وأنا شاب ، فلم أعْكِف على أحدٍ من الخَلْق ، ولم أعلِّق قلبى به ، وكنتُ أجوعُ فى الجامِع كثيرًا فأخرجُ بالليْل إلى قشْرِ البطّيخ الّذى كان بجانب الميضة وغيرها ، فأغْسِله وآكله إلى أن قيّض اللَّهُ لِىَ شخْصًا كان يشتغل فى الطّوَاحين ، فصارَ يتفقّدُنِى ، ويشترى لى ما أحتاج إليْه من الكتُب والكسْوَة ، ويقول : يا زكريا لا تَسْأَلْ أحدًا فى شىْء ، ومهْمَا تطْلُب جئتك به ، فلم يزل كذلك سنين عديدة » [2] .

ولما ظهر فضله تتابعت إليه الهدايا ، والعطايا ، بحيث كان له قبل دخوله فى منصب القضاء كل يوم نحو ثلاثة آلاف درهم ، فجمع نفائس الكتب ، وأفاد القارئين عليه علمًا ومالًا .

وولاه السلطان قايتباى الجركسى (٨٢٦ - ٩٠١) قاضى القضاة ، فلم يقبله إلا بعد مراجعة وإلحاح .

يقول : « إلى أن عزم علىَّ السلطان بالقضاء فأبيت ، فقال : إن أردت نزلت ماشيًا بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك ، فتوليت وأعاننى الله على القيام به » .

وولى قضاء الشافعية فى دولة الأشرف وأقام بها فوق العشرين سنة ، وقد كُفَّ بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

---

(١) **الشيخ الشعرانى** صاحب « طبقات الصوفية » : تلميذ الشيخ زكريا الأنصارى . يقول الشعرانى : « خدمته عشرين سنة » وكتب عنه الكثير بإملاء الشيخ زكريا .

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى .

وقد كان رضى الله عنه يتأسف على توليه القضاء .. قال الشعرانى : قال فى مرة : « إنها كانت غلطة » فقلت : ما هى ؟ فقال لى : « تَوْلِيَتِى للقضاء ، صَيرتْنِى وراء الناس مع أنى كنت مسْتُورًا » .

وكان أكبر المفتين فى مصر ، يصيرُ بيْن يديه كالطفل ، وكذا الأمراء والأكابر يقول الشعرانى : « وقال لى مرةً : مِنْ صِغرى وأنا أحب طريق القوْم (يعنى المتصوّفة) وكانَ أكْثَر اشْتِغالى بمطالعة كتبهم والنظر فى أحْوالهم ، حتى كانَ النّاس يقولُونَ : هذَا لا يجىءُ منْهُ شىْء فى علم الشّرْع ! ... وكنتُ مجابَ الدّعوة ، لا أدْعو علَى أحدٍ إلا ويُسْتجاب فيهِ الدّعاء ، فأشار علىّ بعضُ الأولياء بالتستّر بالفِقْه ، وقال : اسْتُر الطريقَ ، فإنّ هذَا ما هُوَ زَمانُها ، فلمْ أكدْ أتظاهر بشىْءٍ من أحْوالِ القوم إلَى وقَتِى هذَا » .

وحضر مبايعة خَمْسةٍ من السّلاطين وهم :

١ - الناصر . محمد بن قايتباى .

٢ - قانصوة .

٣ - الأشرف . جان بلاط .

٤ - العادل . طومای باى .

٥ - الأشرف الغورى .

وقال : « ما كان أحد يحملنى كما يحملنى السلطان قايتباى كنت أحطّ عليْهِ فى الخطبة ، حتى أظنّ ما عادَ قط يكلّمنِى ، فأوّل ما أخْرجُ من الصلاة يتلقانى ويقبّل يدى ويقولُ : جزاك الله خيرًا » .

* * *

وولى تدريس قبة الإمام الشافعى رحمه الله ، وولى فى آخر عمره مشيخة المدرسة الجمالية .

وتكاثرت عليه فى حلقته صغار الطلبة ، والمشايخ الكُمَّل ووسع الناس ، واسْتجلَّهُم وسبب ذلك فى الحقيقة : كثرة اطلاعه ، وتحصيله الكتب الواسعة .

وكان وقورًا ، مهيبًا ، ملاطفًا .

يصلِّى النوافل من قيام مع كبر سِنِّه وبلوغه مئة سنة وأكثر ، ويقول : لا أعوّد نفْسِى الكسلَ . حتى فى حال مرضه ، كان يصلّى النوافل قائمًا وهو يميلُ يمينًا وشمالًا ، لا يتمالك أنْ يقفَ بغيْر ميلٍ ، للكبر ، والمرض[1] .

وكان يعتقد ابن العربى وابن الفارض وأنظارهما من كبار الصوفية ، ويتأول كلامهم بتآويل جليّة ، حتى ضمّن ذلك كتابه « شرح الروض » وردّ فيه على معارضيه .

وكان لشيخ الإسلام زكريا ذوْقٌ فى فهم أشعار وكلامِ الصوفية ، ويشرح كلامهم على أتم وجه ، ويجيب عنه الأجوبة الحسنة ، إذا أشكل على الناس شىءٌ منه ، وكانَ يقولُ : الفَقِيهُ إذَا لم يكنْ له معْرِفةٌ بمصْطلح ألْفاظ القوْمِ فهوَ كالخُبْزِ الْجاف بغيْر أُدْمٍ[2] .

ورفع إليه سؤال عن بيت من كلام العارفين ، صورته :

هُوَ السرُّ فى الدّارَيْنِ والنّقْطَةُ الّتِى لَهَا حُروفُ جَمْعٍ أعْجمتْ مِنْه تَفْرِقَة

وهو من مقطوعة شعرية تبلغ العشرة أبيات :

وحاصله نظمًا :

محَمَّدٌ فى الدّارَيْن أكْمَلُ خَلْقِهِ تعَالَى وقطْبُ الأنْبِياءِ مُصَدّقه

وخَاتم رُسل اللّه وهوَ الّذِى بِه أُزِيلَت جَمِيعُ المعْجمَات الموَثّقَةُ

* * *

(١) راجع الكواكب السائرة ١٩٦/١ (٢) المرجع السابق .

فأجاب رضى الله عنه : بأن « السِّرّ » : هو الأكمل . و « النّقْطة » : القطب . و « الحرف » : الطّرْف . و « الجمع » هنا : الأنبياء .

وهمزة « أعجمت » للسلب ، يقال : أعجمْتُ الكتابَ ، أى أزلتُ عجمته . و « تفرقة » مفعول له .

ويحتمل أن يراد بـ « النقطة » : نقطة حرف الهجاء . و « بالجمع » : الكلمات ، على إرادة التشبيه البليغ .

أى هو كالنقطة التى بها أزيلت عجمة حروف الكتابة ، فإنه صلى الله عليه وسلم : أكمل الخلق وقطبهم الذى به ، أى بكونه قطبًا ، صار طرف الأنبياء وخاتمهم ، وأزيلت به العجمة من الكتاب المنزّل ، تفرقةً بين الحق والباطل .

وكان ينظم الشعر ولكنه شعر العلماء .

منه ما رُوى عنه فى المواضع التى تباح فيها الغيْبَة :

وتُباحُ غيْبَةٌ لمسْتَفْتٍ ومَنْ ... رَامَ إغَاثَةً لدَفْع مُنْكَرِ
ومعْرِف متَظَلّمٌ متكلِّمٌ ... فى مُعْلِنٍ فِسْقًا معَ المحْذِرِ

وقال رضى الله عنه متوسّلًا :

إلاهى ذُنُوبِى قدْ تعاظَمَ خطْرُهَا ... وليْسَ علَى غيْرِ المُسَامِح مُتَّكَل
إلاهى أنا العَبْدُ المُسِيءُ وليْسَ لِى ... سِوَاكَ ولَا عِلْمٌ لدَىَّ ولَا عَمل
إلاهى أقِلْنِى عثْرَتِى وخَطِيئَتِى ... لِأَنِّى يا مَوْلاىَ فى غايَةِ الخَجَل
إلاهى ذُنُوبِى مثْلُ سبْعةِ أبْحُرٍ ... ولَكنَّهَا فى جَنْب عفْوِكَ كَالْبَلَل
ولوْلَا رجَائى أنّ عفْوَكَ وَاسِعٌ ... وأنْتَ كرِيمٌ ما صبَرْتُ علَى زَلَل
إلاهى بحقِّ الهَاشمِىّ محمّدٍ (*) ... جِرْنِى مِنَ النّيرانِ إنِّىَ فِى وَجَل
وباللّطْفِ والعَفْوِ الجميلِ تولَّنِى ... وبالخيْرِ فامْنُنْ عِنْدَ خَاتِمةِ الأجَل

(*) التوسل إلى الله - عز وجل - أنواع :

١ - التوسل إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بأسمائه وصِفَاته ، لقوله - عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ =

شـيوخـه :

تفقه بجماعة منهم :

شيخ الإسلام . ابن حجر العسقلانى ، وفقيه الوقت الشرف . موسى ابن أحمد السبكى ثم القاهرى ، والشيخ شمس الدين . محمد بن على البدرشينى ، والعلامة . شهاب الدين أحمد بن رجب القاهرى ، وشهاب الدين . أحمد بن محمد بن أحمد الغزى ، وشمس الدين . محمد بن إسماعيل الوفائى ، وشيخ الإسلام . محمد بن على القاياتى ، وعلم الدين . صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى .

= الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ... ﴾ [سورة الأعراف ، الآية ١٨٠] ، ولقول أنس - رضى الله عنه - : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر قال : « يَا حَيّ يَا قَيُّوم بِرَحْمَتِك أَسْتَغِيث » .

[رواه الترمذى والحاكم]

٢ - التوسل إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بعملٍ صالحٍ قام به الدَّاعى ، وذلك يظهر من حديث الثلاثة : « الذين أووا المبيت إلى الغار فدخلوه فدعوا بِصَالِح أَعْمَالِهِم » [متفق عليه] .

٣ - التوسل إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بدعاء الصَّالحين ، ومن ذلك حديث : « استسقاء عمر بالعباس - رضى الله عنهما - » [رواه البخارى] .

وهذه الأنواع الثلاثة ما ذهب إليه الصحابة وجماهير السلف وأهل الحديث ، وأنكروا ما عداه .

وذهب البعض إلى جواز التوسل بالنبىصلى الله عليه وسلم دون غيره واستدلوا بحديث الأعرابى الذى صاح بالنبى صلى الله عليه وسلم قائلًا : يا رسول الله إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « توضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يا محمد إنى أتشفع بك فى رد بصرى ، اللهم شَفِّع نبيك فىّ ، فَرَدَّ الله بصره » [رواه الترمذى ، وابن ماجه] ، واختلف فى تأويله لأقوال عدة .

قال ابن تيمية : ورأيت فى فتاوى الفقيه الشيخ أبى محمد بن عبد الله أنه لا يجوز ذلك فى حق غير النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما من العلماء أنهم قالوا : لا يجوز الإقسام على الله بأحد من الأنبياء ، ورأيت فى كلام الإمام أحمد أنه فى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن هذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه فى جواز الحلف به صلى الله عليه وسلم ، فقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء .. أما الغائب والميت فلا يطلب منه شىء .

مجموع الفتاوى (٢٧/١ ، ١٠٣ ، ١٠٩) ، مجموع الرسائل والمسائل (١ - ٢٨/٣) .

وأخذ العربية ، والأدب ، والأصول ، والمعقولات عن شيخ الإسلام ابن حجر ، وعن المحيوى الكافيجى والتقى الحصكفى .

والإمام زين الدين . أبو النعيم رضوان ابن محمد العقبى ، والإمام المقرى نور الدين على بن محمد بن الإمام فخر الدين المخزومى البلبيسى الشافعى . إمام الأزهر .. قرأ عليهما للأئمة السبعة .

والإمام زين الدين . طاهر بن محمد ابن على النووى المالكى ، قرأ عليه للأئمة زيادة الثلاث زيادة على السبعة .

وقرأ على العقبى : الشاطبية ، والرائية ، وسمع عليه من التيسير للدانى .

وأجازه خلائق يزيدون على مئة وخمسين نفسًا ذكرهم فى ثبته .

تلاميـــذه :

قصد بالرحلة إليه من الشام والحجاز .

ومن أعيان من أخذ عنه :

الشيخ الصالح الولى : عبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات . والعلامة : جمال الدين عبد الله الصافى . والشيخ الإمام : نور الدين المحلى . والشيخ الإمام : مجلى . والشيخ الفقيه : عميرة البرلّسى . والشيخ العلامة : السيد كمال الدين بن حمزة الدمشقى . والشيخ بهاء الدين العصى . وشيخ الإسلام : الجَدّ . وشيخ الإسلام : الوالد [1] . قرأ عليه المنهاج ، والألفية ، وسمع عليه أشياء كثيرة . والشيخ العلامة : مفتى البلاد الحلبية البدر ابن السيوفى . والشيخ شهاب الدين الحِمْصى . والشيخ بدر الدين العلائى الحنفى . والشيخ شمس الدين الشبلى . والشيخ العلامة فقيه مصر : شهاب الدين الرملى القاهرى . وولده شمس الدين الرملى . والشيخ العلامة مفتى الحجاز وعالمها : شهاب الدين بن حجر الهيتمى . شارح المنهاج . وولَدُ الشيخ زكريا [2] . الصالح : جمال الدين يوسف . والشيخ . شمس الدين الخطيب الشربينى المصرى . والشيخ الإمام : نور الدين النسفى المصرى ثم الدمشقى . وغيرهم .

---

(١) المراد : جَدّ ، ووالد الشيخ نجم الدين الغزى صاحب الكواكب السائرة .

(٢) أنجب ولدًا من جارية سوداء (بدائع الزهور) .

علمــه :

كان رضى الله عنه بارعًا فى سائر العلوم الشرعية وآلاتها : حديثًا ، وتفسيرًا ، وفقهًا ، وأصولًا ، وعربيّةً ، وأدَبًا ، ومعقولًا ، ومنْقولًا .

وجمعَ من أنْواعِ العلُوم ، والمعارِف ، والمؤلّفات المقْبُولة ، ومكارِم الأخْلاق ، ومُحسْن السّمْت ، والتّؤَدَة ، والأخذ عن الأكابر : ما لَمْ يجْمَعْه غيْرُه .

مؤلّفــاتُـه :

أعطِىَ الحظّ فى مؤلّفَاته . فقد ذكر صاحب « الكواكب السائرة » أن جملة مؤلّفاته أحد وأربعين مؤلفًا [1] .

فما يتعلّقُ بالفقْه منها : المنْهَج ، وشرحه . وشرْحَا البهْجَة : الكبير والصغير . وسمّاه (الخلاصة) . وشرح الرّوْض . وشرح التنْقِيح . ومختصره . وشرْح مختصر أدب القضاء ، للغزّى . والفتاوى .

وما يتعلق بعلم الفرائض : شرحان على الفصول . وشرح الكفاية ، لابن الهائم . وشرح النفحة القدسية ، لابن الهائم أيضًا . وما يتعلّق بالأوّل مختصر جمع الجوامع . وشرح المختصر المذكور . وحاشية على جمع الجوامع ، للمحلى . وقطعة على مختصر ابن الحاجب . وشرح الطوالع فى أصول الدين .

وما يتعلق بالتفسير : حاشيةٌ على البيْضَاوى . ومقدّمةٌ فى البَسْمَلة والحَمْدَلَة .

وما يتعلق بالقِراءات والتجويد : مخْتصر المرْشِد ، للعمادِى . وشرح الجزَرِيّة . ومختصر قرّة العين ، فى الفتح والإمالة . ومقدّمة فى أحكام النون الساكنة والتنوين .

---

(١) تبين فى حاسوب المخطوطات بدار الكتب المصرية أن له بها ٣٨٤ مخطوطًا ولك أن تراجع هامش معجم المؤلفين لكحالة آخر ترجمته له .

وما يتعلق بالحديث : شرَحَ البخارِى . والإعلام بأحاديث الأحْكام . ومختصر الآداب ، للبيهقى . وشرح ألفيّة العراقى .

وما يتعلق بالتصوّف : شرَحَ رسالةَ القشيْرِى . وشرَحَ رسالة الشيخ أرْسلان .

وما يتعلق بالنحو والتصريف : شرَحَ الشافية ، لابن الحاجب . وشرح الشذور ، لابن هشام .

وما يتعلق بالمنطق : شرَح إيساغوجى .

وما يتعلق بالجدل : شرح آداب البحث .

وما يتعلق بغير ذلك .

مختصر بذل الماعون .

شَرْحَا المنْفَرِجةَ : كبيرٌ وصغِيرٌ .

ديوان خطب .

الثبت الذى أثبت فيه مروياته ومجيزيه .

* * *

وكانت وفاته رضى الله عنه . يوم الأربعاء ، ثالث شهر ذى الحجة [1] . سنة ست وعشرين وتسع مئة . عن مئة وثلاث سنوات . وغسِّلَ فى صبيحة يوم الخميس ، وكفن وحمل ضحوة النهار ليصلى عليه بجامع الأزهر فى محفل من قضاة الإسلام ، والعلماء ، والفضلاء ، وخلائق لا يحصون ، واجتمع بالجامع المذكور . ونواحيه أمثالهم ؛ اغتنامًا للصلاة عليه ، وقاربوا أن يدخلوا به ، وإذا بقصاد ملك الأمراء يحمله إلى سبيل أمير المؤمنين ، ليظفر بالصلاة عليه ، فحمل إلى الرّميْلَة وصلى عليه هناك .

يقول ابن إياس : نزل ملك الأمراء وصلى عليه وحمل نعشه . وتوجهوا به إلى الإمام الشافعى رحمه الله ودفن بالقرافة الصغرى فى تربة الشيخ نجم

---

(١) فى الكواكب السائرة شهر ذى القعدة بدل « ذى الحجة » والمذكور هو ما فى بدائع الزهور ، والبدر الطالع ، وشذرات الذهب .

الدين الخويشانى بقرب قبر الإمام الشافعى - وصلى عليه صلاة الغائب فى الجامع الأموى بدمشق يوم الجمعة بعد صلاتها .. رحمه الله فكان أحق بقول القائل فيمن رثاه حيث قال :

لَقَدْ دُرِسَتْ دروسُ العِلْمِ حزْنًا ... وقَدْ ضَلّ الجوَابُ عنِ السُّؤَالِ
ودَقّ الناسُ أبْوابَ الفَتَاوَى ... وقَدْ وصَلُوا إلى أبواب الصيالِ
بكَاكَ العلْمُ حتّى النّحوُ أضْحَى ... معَ التّصْريفِ بَعْدَكَ فِى جِدَالِ
بكتْ أوْرَاقُهُ بِيضَ الْمَوَاضِى ... دمًا ويراعه سُمْرَ الْعَوَالِى [1]

* * *

ومدحه القاضى بهاء الدين محمد بن يوسف بن أحمد فقال :

فَعَسَى ذكْر رحْمَةٍ مِنْ إلَهِى ... لِى فى حُبّ عَبْدِهِ زَكَرِيّا
شافِعِىّ الزّمانِ قاضِى قُضَاةٍ ... قَدْ تَلَقَّى الحكمَ العزيز ولِيًّا
هو شَيْخُ الإسْلَامِ وَهُوَ إمامُ ... كَانَ يَقْتَدِى بِهِ مَهْدِيّا
... ...
عَالِمًا عَاملًا جَلِيلًا جَمِيلَا ... خاشِعًا ناسِكًا عَزِيزًا أبيّا
عابِدًا زَاهِدًا إمامًا كَبِيرًا ... محْسِنًا مخْلِصًا كَرِيمًا سَرِيّا
أمّةً قانِتًا حَنِيفًا مُنِيبًا ... خَاضِعًا مُخْبِتًا وَفِيًّا صَفِيّا
ملأ الخَافِقَيْن فى العِلْم حتّى ... سارَ عَنْهُ معَنْعَنًا مرْوِيّا
هُوَ مِمّن يُتلَى الكِتَابُ عليْهِمْ ... فَيَخِرّونَ سُجّدًا وبُكِيّا
ولِهَذَا قَدْ حَلّ مِنْ كلّ حَالٍ ... وَمَقَامٍ سَامٍ مَكَانًا عَلِيّا [2]

* * *

---

(١) راجع قصيدة تبلغ ١٧ بيتًا فى (بدائع الزهور ، لابن إياس ٣٧١/٥) .
(٢) المذكور من عدة أبيات ٢٤ بيتًا فى الكواكب السائرة (زكريا ص ٢٠٦) .

توصيف المخطوطة

« رقم ٤٥٠٨ أدب طلعت » دار الكتب المصرية .

صفحة العنوان بخط مغاير لخط الكتاب : « كتاب شرح المنفرجة » لقاضى القضاة تاج الدين ابن الإمام المجتهد تقى الدين السبكى أعاد الله علينا وعلى جميع المسلمين من بركاتهما . آمين » .

ثم ضرب عليه من « لقاضى القضاة ... حتى آخر العنوان » بخط يشير إلى الخطأ وكتب فوقه بخط مخالف : « القاضى زكريا الأنصارى » وتحت هذا العنوان كتب : « نسبة هذا الكتاب للشيخ تاج الدين السبكى غير صحيحة ، بل هو تأليف شيخ الإسلام ، وقاضى القضاة زين الدين أبى يحيى . زكريا الأنصارى رضى الله عنه » وذلك بخط صاحب المقابلات والتعليقات على هذا الشرح .

وعليه أيضًا عدة تمليكات بتواريخها . وعدة أبيات شعرية بخط مغاير .

أول الصفحة الأولى منها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، الحمد لله المفرج للكروب عقيب الشدة . المنجى لخلص عباده من غياهب الظلم المعدة . والصلاة والسلام على سيد الأنام . وعلى آله وأصحابه الغر الكرام .

وبعد : فهذه ألم اشتد إليه حاجة المتفهمين « للمنفرجة » قصيدة الإمام العلامة . الحبر الفهّامة . العارف بالله الربانى . أبى الفضل . يوسف بن محمد ابن يوسف التوزرى الأصل ، المعروف بـ « ابن النحوى » .

ومسطرتها ١٧ سطرًا ، وفى كل سطر ١٠ كلمات .

ومقاسها ١٩ × ١٤ سم ، و ١٠ سم طول السطر الواحد .

وعدد ورقاتها (٣٨ ورقة) وليس على ورقاتها ترقيم وإن كان محْدَثٌ وضع أرقامًا بالرصاص على بعض صفحاتها .

والمخطوطة مكتوبة بخط التعليق . وعليها مقابلة بأصلها ، وذلك بخط ناسخها ، ومقابلة بمخطوطة ثانية بغير خط ناسخها .

وعليها تعليقات من شرح البصروى[1] للمنفرجة مثل : « قيل للحسين ابن علىّ رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول : إن الفقر أحبّ إلىَّ من الغنى ، والسقم أحب إلىّ من الصحة ! فقال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتّكَلَ على حسن اختيار الله لم يتمنّ غيرَ ما اختار الله له ! شارح بصروى » .

وفى تعليق آخر يقول : « من شرح البصروى على المنفرجة » .

والمخطوطة ليس فيها ضبط ولا شكل ولم يذكر بيت الشعر من المنفرجة ثم يتبعه بالشرح . ولكنه يذكر الشرح دون ذكر البيت .

وآخرها :

وعَلَى السِّبْطيْن وأمّهِمَا ... وجَمِيعِ الآلِ بهِمْ تَلِجِ
وعلَى الأصْحابِ بجُمْلَتِهم ... بذَلُوا الأمْوالَ معَ المُهجِ
يارَبّ بِهِمْ(*) وبآلِهِم ... عجِّل بالنّصْرِ وبالْفَرجِ

خاتمة الشارح : « وأنا أتوسل إلى الله تعالى بالناظم وأمثاله أن يمن علىّ وعلَى أمثالى بتوبة صادقة ، ونعمة صافية ، وعافية وافية .

قال مؤلفه (أى الشارح) فسّح الله مرقدَه ، ونوّر مضجعه .

تم الشرح بعون الله وحمده فى حادى عشرين شهر المحرم الحرام[2] من شهور إحدى وثمانين وثمانى مئة » .

---

(١) ممن شرحها : الشيخ الإمام أبو الحسن علىّ بن يوسف البصروى .
راجع : (كشف الظنون ١٣٤٦) .

(٢) فى كشف الظنون : فرغ من شرحها فى ١١ ذى الحجة سنة ٨٨١ هـ .

(*) تقدم الحديث عن هذا التوسل ص ١٩ ، ٢٠ .

خاتمة الناسخ : « قد وقع الفراغ من تسويده على يد الفقير إلى الله الغنى الودود : يوسف بن الحاج إبراهيم غفر الله له ولوالديه ، وأحسن إليهما وإليه بجاه من قبل البعير يديه . اللهم صلِّ وسلم عليه ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين .

وقع الفراغ فى جامع منجك فى شهر صفر المصفر سنة ١٠٣٤ » .

توقيع

يوسف إبراهيم

ثم ألحق بها « قصيدة المنفرجة » فى صحيفتين بخط مغاير لخط الأصل .

* * *

توصيف المطبوع

مطبوعة فى المطبعة المحمودية التجارية فى مصر سنة ١٣٤٥ هـ فى (٤٤ صفحة) .

يشيع فيها التحريف ، والتصحيف ، والخطأ الصريح .. وليس هذا من الشارح - أستغفر الله - سيد العلماء المحققين كما هو واضح فى شرحه .

ولكن ذلك من مصحح المطبعة التى قامت بطباعتها ، وعدم معرفته لقراءة النص فظلم الشارح رحمه الله .

فمثلًا فى البيت (رقم ٥) صفحة (٨) من مطبوعته يذكر :

« ولو أن أهل القرآن آمنوا واتقوا » !!

وصوابها : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ ... ﴾[1] كما فى المخطوط والقرآن .

وتراه فى البيت (رقم ٢٥) صفحة (٢٦) يذكر :

« ويجوز عود الصميرين إلا الآيات » .

وصوابها : « ويجوز عود الضمير إلى الآيات » كما فى المخطوط .

والبيت (رقم ٢٨) يذكر : « أو مبيدًا » .

والصواب : « أو مبتدأ » .

ومثل هذا كثير يشيع فى الشرح . سامحه الله وغفر له ، وسامحنا وغفر لنا .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٩٦) .

المصورات

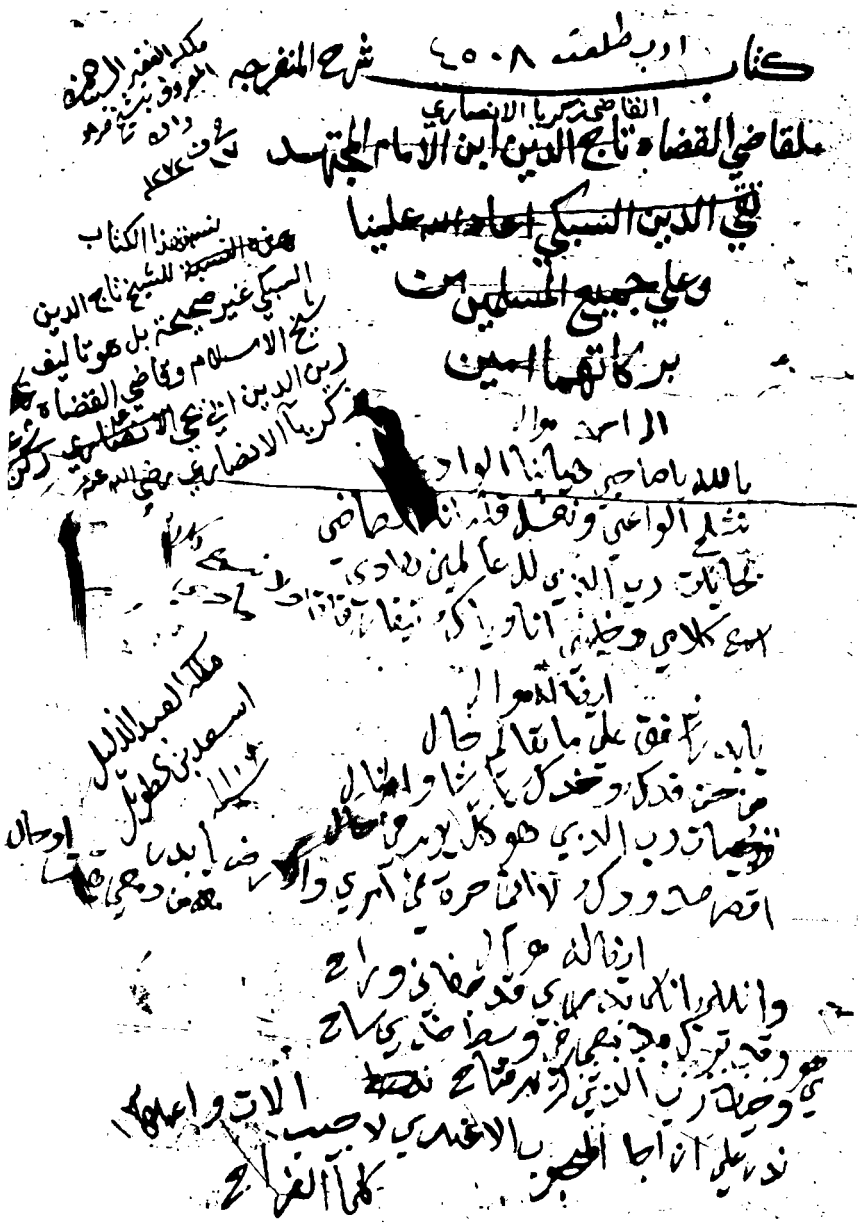

صفحة الغلاف من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله المفرج للكروب مجيب الدعوة المنجي مخلص
عباده من عذاب الظلم المعتدي والقلوب والسلام على
سيد الانام وعلى آله واصحابه الغر الكرام وبعد فهذا اشتد
اليه حاجة المتفهمين للمفرجة قصيدة الامام العلامة
الحبر النحرير الفهامة العارف بالله الرباني ابي الفضل يوسف
بن محمد بن يوسف التوزري الاصل المعروف بابن النحوي
على ما قاله العلامة ابو العباس احمد بن ابي يزيد البجاوي
شارحها او ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم الاندلسي
القرشي على ما قاله العلامة تاج الدين السبكي في طبقاته
مع نقل الاول من شارحها المذكور رحمهما الله ونفعنا
ببركتهما من شرح يجلي الفاظها ويبين مرادها ويكشف
بطلابها نقابا عن وجه لطيف ومنهج منيف لخصيته
من الشرح المشار اليه وغيره مع تبديل وتغيير لما
يحتاج الى تحرير واسئل الله تعالى ان ينفع به وان
يجعله خالصا لوجهه وسببا باضواء البهجة في
ابراز دقايق المفرجة وهي من البحر المتقارب
عشر

الصفحة الأولى من المخطوطة

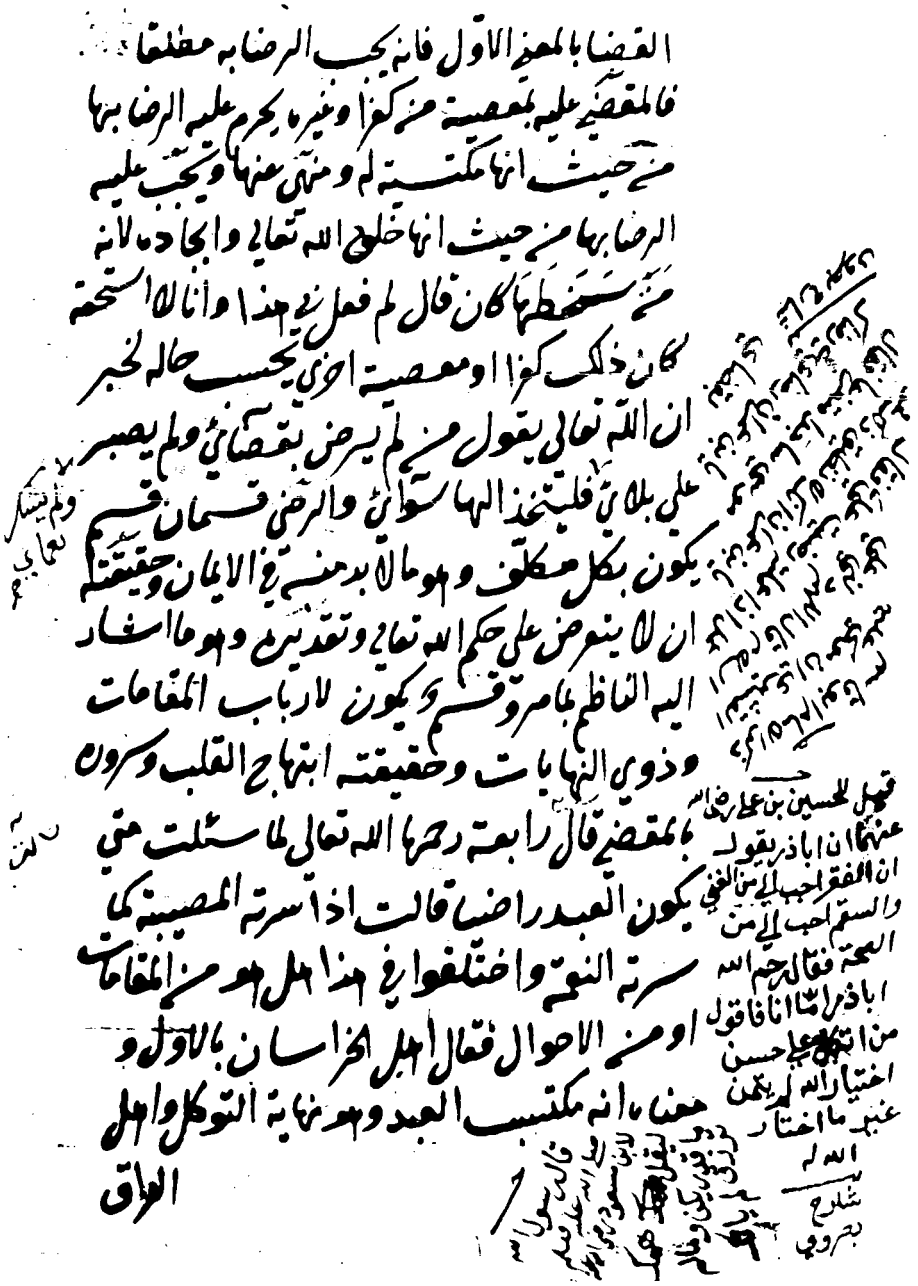

صفحة المخطوط المذكور رقم ١٢ وفيها يتبين
التعليقات والمقابلات

ضاق الذرع فقل اشتدي ازمة تنفرجي وفي نسخة
اخرى بدل هذين البيتين، وهذا بعضهم الذكر
ودلوا القوم على اسنى نهجه وعلى تباعهم العلماء بعوارف
دينهم البهج، وعلى السبطين واميها، وجميع الآل
بهم نلجج وعلى الاصحاب بكلهم، بذلوا الاموال
مع المهج، يارب بهم وبالهم عجل بالنصر وبالفرج،
وانا الوسل الى الله تعالى بالناظم واشائه ان يمن علي
اشاني بتوبة صادقة ونعمة صافية ومعافية وافية
قال مؤلفه فسح الله مرقده ونور مضجعه تم الشرح
بحمد الله ومنه في حادي عشرين شهر المحرم الحرام من
شهور سنة احدى وثمانين وثمانمائة قد وقع الفراغ
من تسويده على يد الفقير الى الله الغني الودود يوسف
ابن الحاج ابراهيم غفر الله لهما ولوالديه واحسن
اليهما واليه يجازيهما من قبل البعير بوبه اللهم صل
وسلم عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وعلى آلهم
وصحبهم اجمعين وقد وقع الفراغ في جامع منجك
في شهر صفر المصفر سنة ١٠٠٢ يوسف

صافية

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

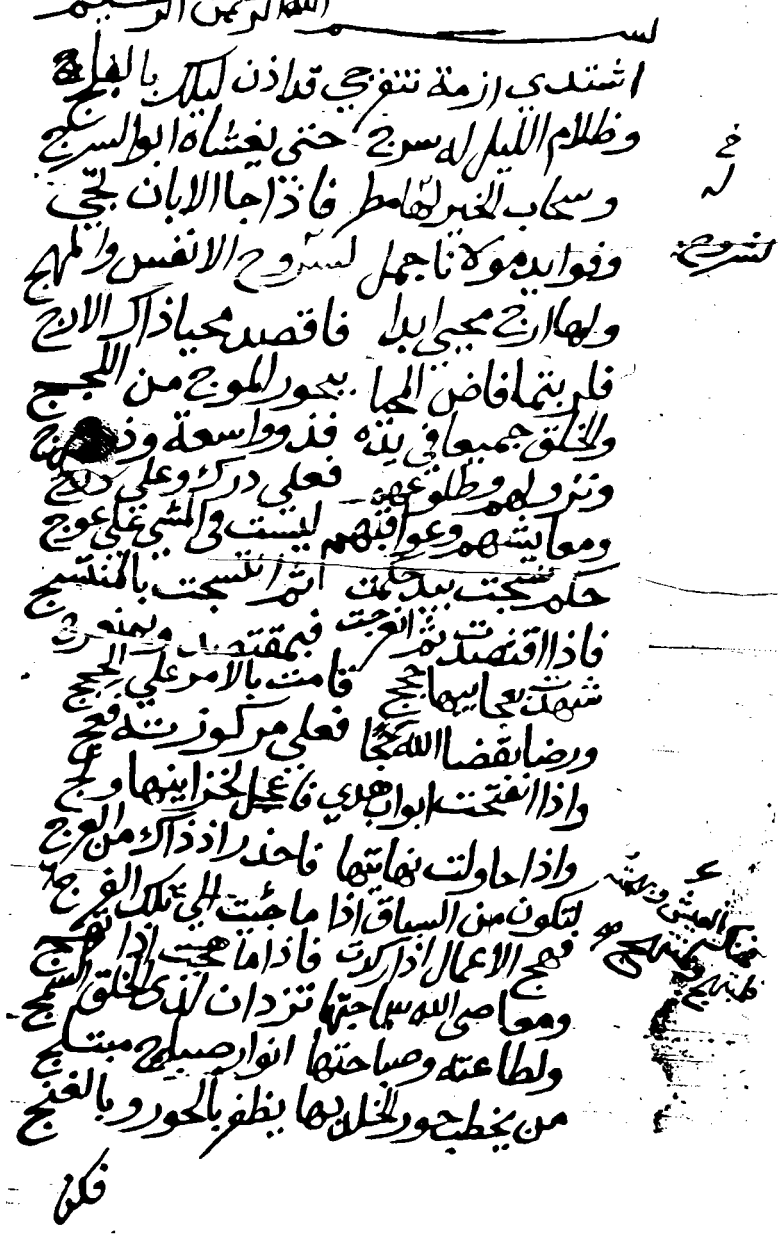

صفحة من قصيدة المنفرجة المخطوطة

(رقم ٤٥٠٨ أدب طلعت)

النَّصُّ

[مقدمة الشارح]

الحمد لله المفرِّج للكرْب عقب الشدّة * المنَجِّى لخلَّصِ عباده من غياهب الظّلَم المعدَّة * والصّلاة والسّلام على سيّد الأنام * وعلَى آلِه وصحْبه الكرام .

وبعد : فهذَا ما اشتدّت إليْه حاجةُ المتفهِّمين « للمُنفرجة » قصيدة الإمام العلّامة * الحبْر البحْر الفهّامة * العارِف بالله الربّانِىّ أبى الفضْل يوسُف ابن محمّد بن يُوسف التوْزَرِىّ الأَصْل [1] المعروف بابن النحوىّ ، علَى ما قاله العلّامة أبو العبّاس أحمد بن أبى زيد البِجائِىّ شارحُها ، أوْ أبى عبد الله بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم الأندلسىّ القرشِىّ علَى ما قاله العلّامة تاج الدين السبكى [2] فى طبقاته معَ نقْلِه الأوّل عن أبى عبدِ الله محمد بن على التّوْزَرِى المعروف بابن المصرى رحمهما الله ، ونفعنا ببركاتِهما .

من شرح يَحلُّ ألفاظها * ويبيِّن مرادها * ويكشِف لطلّابها نِقابَها * على وجْهٍ لطيفٍ * ومنهجٍ مُنِيف لخّصتُه من الشّرْح المشارِ إليْه ، وغيْرِه ، مع تبديلٍ وتغْيير * لِمَا يحتاجُ إلى تحْرير * واللَّهَ أسأل أن ينْفَع به * وأن يجْعله خالصاً لوجْهِه .

---

(١) **تَوْزر** : مدينة فى أقصى إفريقيا ، من نواحى الزّاب الكبير ، من أعمال الجريد ، معمورة ، بينها وبين قفصة عشر فراسخ ، وأرضها سبخة ، بها نخل كثير . (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ستأتى ترجمته بعد ذلك .

وسميته بـ « الأضْواء البَهِجَة فى إبراز دقائق المنفرجة » .

وهى من البحْرِ السّادس عشَر المسمى بالخَبَب[1] الّذِى تركه الخليلُ وغيْرُه ، وأثْبَتَه الأخفَشُ وغيْرُه .

وتفصيله : فَاعِلُنْ . ثمانِ مرّاتٍ[2] ، وسُمِّىَ بالخَبَب ، لِقَصر أجْزائه ، وتقْطِيع أبْياتِه ؛ يحاكِى فى السّمْع ركْضَ الخيْل وخَبَبِها .. وزِحافه[3] « الخَبْن » وهو : حذْف الثّانِى الساكن[3] .. وإن سكنَتْ عينه[4] ، فقِيلَ : بالإضْمارِ بعدَ الخبْن ، وقيل : بالقطع ، وقيل : بالتّشْعِيث[5] على ما هو مبين مع الصّحِيح منْها فى محلّه ، وهذِه القصيدة سمّاها الشيخُ تاجُ الدّين

---

(١) وهو البحر السادس عشر ، ويسمّى « المحْدث أو المخترع أو الشقيق أو المتسق أو الخبب ، وركض الخيل » .

(٢) وذلك مثل :

جاءنا عامرٌ سَالِمًا صالحًا بعْدَ مَا كَانَ مَا كَانَ مِنْ عَامِرِ

تقطيعه وتفعيله :

جاءنا / عامِرُنْ / سالِمَنْ / صالحَنْ بعْدَمَا / كان ما / كانَمِنْ / عامِرِى

فاعلن / فاعلن / فاعلن / فاعلن فاعلن / فاعلن / فاعلن / فاعلن

سالم / سالم / سالم / سالم سالم / سالم / سالم / سالم

(٣) حذف الثانى الساكن من « فاعلن » = « فَعِلُن » مثل :

أبكيت على طَلَلٍ طَرَبا فشجاكَ وأحْزَنك الطّلَلُ

فعِلُن / فعلن / فعلن / فعلن فعلن / فعلن / فعلن / فعلن

(٤) فيجىء على « فَعْلُن » مثل :

ما مِن يوْمٍ يمْضى عنّا إلّا أمْضى منّا قَرْنا

« فعْلُن فَعْلُن » .

(٥) **التّشعيث** : هو حذف أحد متحركى وتدها ، وهو أن يصير :

« فاعلاتن » أو « فاعتُنْ » أو « فالاتَنْ » .

وإنما سمى المشعث ، لأنك أسقطت من « وتده » حركةً فى غير موضعها متشعث الجزء .

راجع : (كتاب الكافى فى العروض والقوافى . للخطيب القزوينى ١١٣) .

السبكى[1] بـ « الفرج بعدَ الشدّة » قال : وهى مُجرّبة لكشْف الكرُوب ، وأنّ كثيرًا من النّاسِ يعتقدون أنّها مشْتمِلة على « الاسْم الأعظم » وأن ما دَعَى بها أحدٌ إلّا اسْتُجِيب له . قال : وكنتُ أسمع الشيخَ الإمامَ الوالِد[2] إذا أصابه أزمة يُنْشِدها[3] .

والظّاهِر أنّ ناظِمَها ابتدأ لفْظًا وخطًّا بـ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » أو بالحمْد لله ؛ لخبَر « كلّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يبتدأ[4] فيه بِبسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، وفى رواية : بـ (الحمْد لله) فهو « أجْذم » : أى مقْطُوع البرَكة[5] .

ثم قال مخاطبًا لما لَا يعْقِل بعد تنزيله منْزِلَة مَنْ يعْقل ، كقوْلِهِ تعالَى : ﴿ ... يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى ... ﴾[6] .

* * *

---

(١) تاج الدين أبو نصر : عبد الوهاب بن على . استطاع بذكائه وجِدّه ودأبه أن يصل إلى أرقى المناصب وأن يحتل مكان الصدارة فى الفتيا والتدريس وأن يخرج إلى الناس من مؤلفاته ما يبهر : غزارة علم ، وجمال عرض ، وحسن تنسيق ، ولد بمصر سنة (٧٢٧ هـ) وتولى مناصب عديدة فى مصر والشام . راجع : (مقدمة طبقات الشافعية) .

(٢) أى والد تاج الدين السبكى .

وهو : شيخ الإسلام تقى الدين أبو الحسن على المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) طار اسمه فملأ الأقطار وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار ، ولى التدريس فى أماكن كثيرة فى مصر والشام ، وتصدى لابن تيمية ورد عليه فى مسألتى : الطلاق وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ووقع عليه الاختيار سنة (٧٣٩ هـ) ليكون قاضى قضاة الشام ، وصنف ما يربو على ١٥٠ مصنفاً فى العلوم الشرعية والعربية .

(مقدمة تحقيق طبقات الشافعية .. الدكتور عبد الفتاح الحلو ، والدكتور محمود الطناحى) .

(٣) جاءت هذه الأخبار فى « طبقات الشافعية » عندما ترجم السبكى لمحمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأنصارى ص ٥٦/٨ و ٦٠

(٤) فى المخطوط : « بسم الله الرحمن الرحيم » لحديث : « كل أمْرٍ ذى بال لم يبدأ فيه » .

(٥) ذكره الهيثمى فى (مجمع الزوائد ١٨/٢) وقال : رواه الطبرانى فى « الكبير » .

(٦) سورة هود ، الآية (٤٤) .

١ - اشْتَدِّى أَزْمَةُ تَنْفَرِجِى قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ [١]

« **اشتدّى أزْمةَ** » : أىْ شدة . وهوَ ما يصيبُ الإنسانَ من الأمورِ المقْلِقة من الأمْراضِ وغيْرِها .

« تَنْفَرِجى » بالجزْم ، جوَابًا للأمْر : أى تَذْهَبِى . بمعْنَى يذْهبُ همُّكِ عنَّا .

« قَدْ آذَنَ » بالمدّ وفَتْح المعْجَمة : أى أعْلَم .

« **ليْلُك بالبَلَج** » : أىْ ضِياء الصّبْح . وهو اسْتِعارَة للفَرَج ؛ لاشْتِراكهما فى الإذْهابِ والتّحصِيل ؛ لأنّ الضياءَ يُذْهِب الظّلمة ، والفَرَج يُذْهِب الحزَن ، ويحْصل بكلٍّ منْها السُّرُور ، وخصَّ اللّيْلَ بالذّكْر لاشْتِدَادِ الكُرَب فيهِ ، واسْتِعقابِه للضّياء ، وهو كِنَايةٌ عَنِ الكرْب لأنه لَازِمٌ له كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [٢] : أىْ خاف رَبّه .

وبما تقرّرَ : عُلِم أنّه ليْسَ المرادُ حقِيقَة أمْرِ الشدَّةِ بالاشتدادِ ، ولا نِداءَها ، بل المرادُ طلَب الفَرَجِ ؛ لتزولَ الشدّة .. لكن لما يثْبِت بالأدلّة أنّ اشْتِداد الشدَّة يُسبِّبُ الفرَجَ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ... ﴾ [٤] .

وقوْله صلّى اللَّهُ عليْه وسلم : « وإن الفرَجَ مع الكَرْب وإن مَعَ العسْر يُسرًا » [٥] أمرَهَا ونادَاها إقامَةً للسّبَبِ مقامَ المسَبّب .. وفيهِ تسْلِيةٌ وتأْنِيسٌ بأنّ الشدّةَ نوعٌ مِنَ النّعْمةَ لما يترتَّبُ عليْها .

---

(١) يلاحظ أن المخطوطة لا تذكر نص البيت الشعرى ، وإنما الشرح فقط .

(٢) سورة الرحمن ، الآية (٤٦) . (٣) سورة الشرح ، الآية (٦) .

(٤) سورة الشورى ، الآية (٢٨) .

(٥) ذكره أحمد فى (مسنده ٣٠٧/١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

... ...

و « قد » للتّحقيق وللتّقْريب[1] لأنّه طلَبَ مِن الشدَّةِ انْفِراجَها بمضْمُون الجمْلة المذْكورَة ؛ فكأنّه قالَ : إنّما طلبْتُ مِنْكِ ذَلِك لتَحْقِيقِ حُصُولِه وقرْبِه عندَ اشْتدادك .. وإسنَاد الإعْلامِ إلَى اللّيْل : مجَازٌ عقْلِى[2] . كما فى : أنْبتَ الرّبيعُ البقْلَ . ولَيْلُهُ قائمٌ .

وفى البيت من أنواع البديع[3] وبراعةُ المطْلَع . وهىَ سُهُولة اللّفْظِ ، وحسْنُ السّبك ، ووُضُوحُ المعْنى ، وتناسُب المِصْراعَيْن ، وعدَم تعلّق البيْتِ بمَا بعْدَه .

وبَراعةُ الاسْتِهْلالِ : وهى أنْ يكونَ المطْلَع دالًّا علَى ما بُنِيَتْ عليْه القَصِيدَة ونحوها .

كما بنَى قصِيدتَه علَى بيانِ سلُوكِ الآخِرة ، بتصْفِيةِ القلْب ، ورياضَة النَّفْسِ .

إذْ مضْمُونُ البيْتِ : أنّ الشدّة يعْقبُها الفرَج ، فقدْ أنبأَ عَنْ قصْدِه ؛ لأنّ سلوكَ طرِيق الآخِرة فيهِ علَى النّفْسِ أعْظَم مشِقّة يعْقُبُها أتَمّ فرَج .

والاقْتِباس : وهو أن يضمِّنَ الكلَامَ شيْئًا مِنَ القرْآن ، أوْ الحدِيثِ خاصّة ، لا ينَبّه علَى أنّه مِنْه . وهوَ هُنَا فى المصْرَاع الأول ، فقَدْ رُوِىَ أنّه مِنَ الحدِيثِ .

والطباق فى المصراعين : وهو أن يجْمَع بيْنَ أمرَين متقَابِلَيْن ، كما جمعَ

---

(١) فى المطبوع : « وللتقرب » مكان : « وللتقريب » .

(٢) **المجاز العقلى** : هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له للملابسة بتأويل .

(٣) **البديع** : دراسة لا تتعدى تزيين الألفاظ أو المعانى بألوان بديعة من الجمال اللفظى ، أو المعنوى .. ويسمى العلم الجامع لهذه المباحث بعلم « البديع » كالجناس ، والتورية ، والطباق ... إلخ .

... ...

بيْنَ « الاشْتِدادَ » و « الانْفِراج » وبين « اللّيل » و « النهار »(*).

وعطف على الجملة السابقة قوله :

اشْـتِدادُ الأزْمَـة يـؤْذِنُ بالفَـرج(*)

استهل الناظم قصيدته بمخاطبة الشدائد والمحن التى كثيرًا ما يصاب بها العبد فى الدنيا ، فتشق عليه ، وتضيق بها نفسه ، ويشتد مضضه ، ونزّلها منزلة من يعقل فقال :

أيتها الأزمة ، اشتدى ما شئت فى النكاية ، وابلغى ما أردت من القسوة ، فلن يستقر فى قلب المؤمن الصادق يأس ولا قنوط من روح الله ﴿ ... وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية ٨٧] .

ولن يتزلزل يقين المؤمن ، لأنه يعلم أن ذلك من ابتلاء الله واختباره لعباده ، وهو أعلم بأمرهم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

[سورة محمد ، الآية ٣١]

وسيجعل الله بعد عسر يسرًا ، وبعد ضيق فرجًا ، فيكشف الغمة ويفرّج الكربة ، ويجزل المثوبة على صدق يقين المؤمن والظن بالله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

[سورة الشرح ، الآيتان ٥ ، ٦]

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الفرج مع الكرْب » .

فشدّتك أيتها الأزمة مهما استحكمت بشيرة بانتهائك .. وقسوتك مهما طال الزمن مؤذنة بزوالك .

وإذا كانت بدايتك - بتقدير الله - مِحْنَة : فنهايتك ، بلطف الله منحة .

ولله الحمد والثناء فى كل الأحوال .

* * *

٢ - وَظَلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

« **وظلَامُ اللّيلِ لَهُ سرُجٌ** » : وهى الكَواكِب غَيرُ الشّمْسِ يَمْتدّ نُورها .

« **حتَّى يَغْشَاهُ أبُو السُّرُج** » : وهى الشّمْس . وجعِلَتْ أبَاهَا ؛ لأنها الأصْل ؛ إذ بنُورها يَذْهبُ نورُ تِلْك ؛ ولأنّ نورَ القمَر الّذِى هوَ أقْوى منْ نُور بقيّة الكَوَاكِبِ اللّيْليّة مُسْتَفادٌ مِنْ نورِهَا علَى مَا قَالَه أهلُ الهيْئة .

والمراد : أنّ الكروبَ الشّدِيدة لا بُدّ فى أثنَائِها مِن ألطافٍ تخفّ معَها الآلام ، حتّى يتفضّل اللَّهُ تعالى بالفَرجِ التّامِّ الَّذِى لا ألَم معَهُ ، ولا كَرْب ، كاللّيْلِ المظْلِم ، جَعَل اللَّهُ فيهِ الكَواكِبَ يَقِلّ بِها ظلَامُه ، ويخفُّ بها قبْضُه ؛ حتّى يدْخلَ النّهارُ فيذْهبُ بظلامِه ، وتنْبَسِطَ النّفْسُ بضوْئه[1] .

وفى البيْت : **الجنَاس التّام** : وهو أنْ يتّفِق اللّفْظَانِ فى أنوَاعِ الحرُوفِ وأعْدَادِها ، وهيْآتِها وترْتِيبها .

وردُّ العجُزِ علَى الصّدْر : وهو إعادَة اللّفْظةِ بعيْنِها ، أو مَا تصرّفَ منْها فى آخِرِ المصْراع الثّانِى بعْدَ ذِكْرهَا فى صدْرِه ، أوْ فى حشْوه ، أو فى الأوّل ، وكلاهُما فى سرُجٍ مع السّرُج[*] .

وعطَفَ علَى الجمْلة السّابقة أيضًا قوله :

---

(١) فى المطبوع : « « بضوء » بدل : « بضوئه » .

التدرّج فى كشف الغُمّة[*]

من السنن الإلهية - غالبًا - فى تفريج الشدائد القاسية ، وكشف المحن الغاشية : التدرّج فى الألطاف ، وتخفيف وطأتها بشىء من الإتحاف ؛ ليأنس به المبتلى ، ويفسح له باب الأمل والرجاء .

ألا ترى الليلَ الدامس إذا اعتكرت ظلمتُه ، ، واشتدت رهبتُه ، وعظمت وحشته ، تُرَى فى أعطافه نجوم السماء ، ترسل بصيصًا من النور والضياء ، ويبزغ فيه القمر يسيرًا ، ثم يكبر تدريجًا ، حتى يصير بدرًا منيرًا ، فيخفف ذلك من صرائه ، حتى يغشاه النهار بضيائه ، فتمحى ظلمته ، وتنقشع وحشته ، كأن لم يكن بالأمس .

هذا - وقد يأتى الله بالفرج عجلًا ، دون تدرج .

٣ - وَسَحَابُ الـخَـيْـرِ لَهَا مَطَرٌ فَـإِذَا جَـاءَ الإِبّـانُ تَـجِـى[١]

« **وسَحَابُ الـخَيْرِ** » : وهـوَ الغيْم . « لها » : وفى نسخة : « له » .

« **مَطَرٌ فإذَا جَـاءَ الإبّـانُ** » : وهو بكسر الهمْزة وتشْدِيد الموحّدة : الوقت . والمراد : وقت السّحابِ .

« **تَـجِـى** » : بالقصر ؛ للوقْف : أى السّحابُ لـمّا سَلّى ذوِى الشّـدائِد ، ورجَاهُم بأنّها وإنْ عظُمَتْ ففِى أثْنائِها ألْطافٌ تمتَدّ إلَىٰ الفَرجِ التّام .

أشـار إلَى الحثّ علَى الْتزام الصّـبْرِ فى أزْمِنة تِلْك الشّـدائِد ؛ لأنّها لا تنْقَضِى إلا بانْقِضاء زمَانِها ، ولا يَأْتِى الفرَجُ إلّا فى زمَانِهِ المقدّر ، كالسّحابِ الّذِى يكونُ عنْها الخِصْب بنزُولِ المطَرِ فى وقْتٍ مقدّرٍ لا يتقدّمُ ولا يتأَخّرُ ، فالعاقِلُ لا يسَعُه إلّا الصّبْر والتّسْليم للَّهِ تعالَى وحسْن الظنّ بِهِ ، ولَا ينْفَعه الجزَع ؛ لأنّه مِحْنةٌ للقلْبِ بلَا فَائِدَة .. وفيهِ سَخَطُ الربّ . ولعلّ الفوَائِدَ فى الشّدائِد . قال تعالى : ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُم ... ﴾[٢] ، وقال : ﴿ ... فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٣] ، وقريبٌ مِنْ هذَ قوْلُ الشّافِعِىّ[٤] رضِىَ اللَّهُ عنْه :

ولربَّ حادِثَةٍ يضِيقُ بها[٥] الفَتَى ذَرْعًا وعنْدَ اللَّهِ مِنْهَا المخْرَجُ

---

(١) فى المطبوع : « تجى » بدل : « يجى » .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢١٦) .

(٣) سورة النساء ، الآية (١٩) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) ولد فى غزة ، وتوفى فى مصر ونشأ بمكة ، ثم قدم بغداد ورحل إلى مصر وهو أحد الأئمة الكبار وصاحب المذهب المعروف .

(٥) فى المطبوع : « لها » بدل : « بها » .

... ...

ضَاقَتْ فلمّا استَحْكَمتْ حَلَقاتُها فُرِجَتْ وكنْتُ أظُنّها[1] لَا تُفْرَجُ[2]

وقول غيره[3]:

توقّعْ صنْعَ ربِّكَ سوْفَ يأتِى بِما تَهْوَاهُ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبِ
ولَا تَيْئَسْ إذَا مَا نَابَ خطْبٌ فكَمْ فى الغَيْبِ مِنْ عجَبٍ عَجِيبِ

وفى البيت رد العجز على الصدر . وهو فى « جاء » و« تجى »[*].

---

(١) فى المخطوط : « وكان يظنها » بدل : « وكنت أظنها » .

(٢) البيت فى ديوان الشافعى (صفحة ٤٠) طبعة دار ابن سينا وفيه :

ولرُبَّ نازِلَةٍ يضِيقُ بها الفَتَى ذَرْعًا وعنْدَ اللَّهِ مِنْهَا المخْرَجُ
ضاقَتْ فلمّا استَحْكَمتْ حَلَقاتُها فُرِجَتْ وكنْتُ أظُنّها لا تُفْرَجُ

(٣) فى المطبوع : « وقال غيره » بدل : « وقول غيره » .

للمقدرات الإلهية أوقات محددة[*]

قد تطول المحنة ، ويتفاقم الخطب ، ويبطئ الفرج ، فيتسرب القلق والجزع فى شىء من اليأس والقنوط إلى النفس ، بحكم البشر ، ولكن ذلك لا يلبث أن يزول من نفس المؤمن الصادق .

فإذا أراد الله تفريجها وكشفها وقع ذلك فى وقته المقدّر المعلوم ، و﴿ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ... ﴾ [سورة الشورى ، الآية ٢٧] فى الأوقات المحددة له بمقتضى الحكمة الإلهية ، فليس ثَمَّة ريْبٌ ولا عجل ، وإنما هو تقدير إلهىّ ، وتحديد حكيم بالمكان والزمان والحال .

وفى الحديث : « كل شىء بقدر ، حتى العَجْزُ والكيْسُ » .

إذا علمتَ هذا ، فاعلم أن على العبد أن يكون فى المحنة التى تنزل به حسن الأدب مع ربه ، قائمًا بحق العبودية له سبحانه ، وذلك بالتحقق بالأمور الآتية :

الرضا بالقضاء والقدر : فالرضا بالقضاء مفتاح الفرج ، وباب الله الأعظم .. وأثره فى القلب : السكينة ، والطمأنينة ، والانشراح .

فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذاقَ طعم الإيمان مَنْ رضىَ بالله ربًّا » ، ومن رضيه ربًّا يرضى بحكمه وقضائه ولا يسخط عليه من حيث إنه مراده واختياره .

والصّبر علَى البلاء : وهو تجرع مرارته من غير تقطيب وتعبيس ، ولا كراهية ، ولا اشمئزاز . =

... ...

وعطف علَى الجمْلة أيضًا قوْلَه :

= أو هو سكون الخاطر فى حالتى المحنة والمنحة على السواء .

فمن رضى بالقضاء . وصبر على البلاء . وأحسن الظن بالله . والتجأ فى ضرائه إلى الله . واستجار به ودعاه : كشف عنه السوء بفضله ، وهو أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين . لا يرد سائلًا ، ولا يخيّب آملًا .

وإذا أيقن المبتلَى بذلك اطمأن قلبه ، وانشرح صدره ، وسكن جأشه ، ولم يبق فى نفسه موضع للقلق والجزع ، فلا جدوى للقلق والجزع بل هما شر وضُرّ ، وعناء وشقاء . والرضا بالقدر من أركان الإيمان ، كما فى (الصحيحين) ، وفى (مسند أحمد) : « لا يؤمن المرء حتى يؤمن بالقدر : خيره وشره ، ولن يغلب عسر يسرين » ، وأن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن الله مع الصابرين .

* * *

ولا يذهبنّ إلى الوهم أنا نريد بما قدمنا أن المسلم إذا أصابه مرض ، يرضى ، ويصبر ، ويستسلم ، فيدع الدواء والتداوى ، وإذا اعتدى على نفسه أو ماله أو عرضه ، أو أية حرمة من حرماته . يرضى ويصبر !

وكيف نريد شيئًا من هذا وقد تداوى النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بالتداوى ، ومن قتل دون ماله أو عرضه أو دمه فهو شهيد .

وإنما نريد منه إذا أصابته نائبة أو نزلت به جائحة أن ينزع من قلبه السخط على قضاء الله وقدره ، ويملأ قلبه إيمانًا بالله ورضاء بقدره والله الموفق .

* * *

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وهو عنوان الفرج فى (صحيح مسلم) : « عجبًا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له » .

وحسن الظّن باللّه : والرجاء فيما عنده من الخير ، وفى الحديث القدسى : « أنا عند حسن ظنّ عبدى بى ، فليظُنّ بى ما يشاء » .

والاستسلام للّه تعالى : والخضوع لحكمته وقضائه .

والالتجاء إلى اللّه : والركون إليه ، والتوكل عليه فى كشف الغمّة .

* * *

٤ - وَفَوَائِدُ مَوْلَانَا جُمَلٌ لِسُرُوحِ الْأَنْفُسِ وَالْمُهَجِ

« **فوائِدُ مولانَا** » : أى ناصرنا تعالى ، وهو جمع فائدة ، وهى : ما حصَلَ مِن الأشْياءِ النّافِعة فى الدِّينِ والدّنيا . يقال : منْهُ فادَتْ لكَ فائِدَة : أى أتَتْكَ .

« **جُمَلٌ** » : أى كثِيرةٌ مِنْ أنْواعٍ لا تُحْصَى ، قالَ تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴾[1] .

« **لِسُروحِ الأنْفُس والمُهَجِ** »[2] بالسّينِ والحَاءِ المهْمَلَتَيْن ، مِنْ سَرحَتْ الدّابةُ سرُوحًا بالغَداة . ضدّ الرّوَاحِ بالعَشِيّ : أى لسرُوحِ الأنْفُسِ والإرْوَاحِ لطلَبِ منْفَعةِ مَعاشٍ ، أوْ معادٍ . والْإضَافَةُ فيهِ من إضَافةِ الصِّفَة إلَى الموْصُوفِ كسحْقِ عِمَامَةٍ : أى الأنْفُس والأرْواح السّوارح .

وفى رِوَايَةٍ بالشّينِ المعْجمة : أىْ عطَايَاه تعَالَى كثِيرةٌ معَدَّةٌ لشرْحِ الأنفُسِ والأرْوَاحِ بإذْهابِ أحْزَانِها . فكيْفَ ييْئَس العاقِلُ عِنْد اشْتِدادِ الأزْمَةِ ، وقدْ روَى البُخارِى خَبَر : « ما يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ ولَا نَصَبٍ ولا حَزَنٍ حتّى الهَمّ يَهمّه إلّا كفّرَ اللَّهُ بهِ سيّئاته »[3] ، وخبر : « مَا مِنْ مسْلِمٍ يُشَاك بشوْكَةٍ فمَا فوقَهَا إلّا كتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا درَجَةً ومُحِيَتْ عنْهُ بهَا خَطِيئة »[4] .

وخبر : « مَنْ يُرِد اللَّهُ بِهِ خيْرًا يُصبْ منْه »[5] .

وكلّ ذلك مبْنىٌّ علَى الصّبْر وهوَ أرْبَعة أنواع :

١ - صبرٌ علَى الطّاعة .

٢ - صبْرٌ عَنِ المعْصِيَة ، وهما أسَاسُ طرُقِ الاسْتِقامة .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٣٤) . (٢) فى المطبوع : « المنهج » بدل : « المهج » .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٥٨١٨) .

(٤) صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٥٧٦٣) .

(٥) صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٦٦١٠) ، والبخارى (٢٧/١) .

... ...

٣ - صبْرٌ عنْ فضُولِ الدّنْيا ، وهوَ أساسُ الزّهد .

٤ - صَبْرٌ علَى المصائِب والمحَنِ ، وهوَ أساسُ الرِّضَى والتّسلِيم لِلَّهِ تعالى .

وحسْنُ الظّنّ ، وهوَ أشَقّ الأنْواع علَى النّفْس ؛ فلِذلِك أفْرَدَه النّاظمُ بالذّكْر .

فرَجى أوّلًا : بانْقِضاءِ الشدّة .. وآنسَ النفْسَ بالمحَنِ : ثانيًا ، وأمرَ بالصّبْر : ثالثًا . كما تقرر .

ثمّ أشارَ إلَى كرَمِهِ تعالَى وكثْرةِ عطَايَاهُ لمنْ طَلَبَها مِنْ بَابِها علَى وجْهِها بالصّبْر ، والأدَب ، وحسْنِ الظّن .

و « المهج » جمْع : مُهْجَة . قال الجوْهَرِيّ[1] : وهيَ الدّم . وقيل : دَمُ القَلْبِ . وقيلَ : الرّوح ، وهو المرَادُ هنَا ، كما شرَحْتُ عليْهِ . والمشْهُورُ أنّ الرّوحَ هِيَ النفْسُ فالمسَوّغُ لعطْفِها علَيْها : اخْتِلَافُ اللّفْظِ ، كعطْفِ رَحْمة علَى صَلوَات فى قوله تعالى : ﴿ ... أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ... ﴾[2] .

وحقِيقَة الرّوحِ .. لم يتَكلّم عليْها النّبى صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم ، فنُمْسِكُ عَنْها ، ولَا نُعَبّر عنْها بأكْثَر مِنْ موْجُودٍ . قالَ الجنَيْدُ[3] وغيْره : الخائِضُونَ

---

(١) هو : إسماعيل بن حماد الجوهرى من الفاراب إحدى بلاد الترك ، إمام فى علم اللغة وله كتاب « الصحاح » فى اللغة أشهر من أن يعرف به . مات بنيسابور سنة ٣٩٨ هـ .
(إنباه الرواة ١/١٩٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٥٧) .

(٣) **الجنيد** : هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز : أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق . من متصوفة الطبقة الثانية ، فقيهًا مفتيًا فى حلقته من أئمة القوم وسادتهم . توفى سنة ٢٩٧ هـ .
(طبقات الصوفية للسلمى ٣٦) .

... ...

فيهَا اخْتلَفُوا ، فقالَ جمْهورُ المتكلّمين : إنّها جسْمٌ ، لطِيفٌ ، شفّافٌ ، حَيٌّ لذَاتِه ، سَارٍ فى البدَنِ كمَاءِ الورْدِ فى الورْدِ .

واحتَجّ لهُ بوصْفِها فى الأخبَارِ بالهبُوطِ ، والعرُوج والتردُّدِ فى البرْزَخِ .

وقال كثيرٌ منْهم : إنّهَا عرَضٌ ، وهِىَ الحياةُ الّتِى صارَ البَدَنُ بوجُودِهَا حيًّا .

وقالت الفلَاسِفة وكثيرٌ مِنَ الصّوفية : إنّها ليْسَتْ بجِسْمٍ ، ولا عَرَض ، وإنّمَا هى جوْهَرٌ مجرّدٌ قائِمٌ بنَفْسِهِ غير متَحيّز متعَلّقٌ بالبدَنِ للتّدْبِير والتّحْرِيك غيْر داخِلٍ فيهِ ولا خارِجٍ عنْه .

وفى البيْت : « **الإيغال** » : وهو ختْم الكَلَامِ بِمَا يُفيدُ نكْتَةً يتمّ المعْنَى بدُونِها وهو فى « المهج » .

وعطفَ علَى « جُمَلٍ » قوْلَه :

٥ - وَلَهـا أَرَجٌ[1] مُحْـيِ أَبَـدًا فَاقْصُـدْ مَحْـيَا ذَاكَ الأَرَجِ

« **ولهـا** » : أى للفوائد .

« **أَرَجٌ** » : مِنْ أَرِجَ الطّيب أرَجا ، **وأرِيـجًا** : إذَا فاحَ وانْتَشَر .

« **مُحْـيِ** » بضمِّ المِيم ، مِنَ الإحْياء ، وهو إعْطاءُ الْحياةِ ، وهِىَ صِفَةٌ تقْتَضِى الحِسَّ والحَرَكةَ الإرَادِيّة . أى : مُحْيِ النّفُوسَ الزكيَّة ، بأنْ يُحْيِيها اللَّهُ بهِ . « **أَبَـدًا** » : أى دَائِمًا .

« **فاقْصِـدْ مَحْيَا** » بفتْح المِيم ، من الحيَاةِ : أى فأْتِ زمانَ ، أو مَكَانَ .

« **ذاكَ الأَرَجِ** » والمرَاد : قصْدُ ذاكَ الأرَج الشّرِيفِ فى زَمَانِه ، أوْ مكَانِه ، إلّا أنّهُ كَنَّى عنْه بقصْدِ محْياه : أى زمَانه ، أوْ مكانِه ؛ لأنَّهمَا لا زِمان لَهُ .

والمعْنَى الّذِى ذكَرهُ منْتزعٌ مِن كتابِ اللَّه تعالَى كقوْله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾[3] .

وفى البيْت : ردّ العَجُزِ علَى الصّدْرِ ، وقد مر[4] .

وَالتّتْمِيم : وهو أن يؤْتَى فى كَلامٍ لَا يُوهِمُ خِلافَ المرَاد بفضْلة لِنُكْتَةٍ . وهو هنا فى « أبَدًا » .

---

(١) فى المطبوع : « أرَرَج » بدل : « أرج » .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٩٦) .

(٣) سورة الطلاق ، الآيتان ، (٢ ، ٣) .

والآية : ﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [سورة الطلاق ، الآية ٣] .

(٤) فى آخر شرح البيت الثانى وهو قول المصنف :

٢ - وَظَـلَامُ اللَّيْـلِ لَهُ سُـرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّـرُجِ

... ...

والجناسُ المحرّف (١) : هو ما اختَلَفَتْ كلماتُه فى هيئة الحرُوفِ ، وتوافَقَتْ فِى نوْعِها وعدَدِها ، وتَرْتِيبها ، وهوَ هُنا فى « مُحْيِ » و « مَحْيَا » (*) .

وإذا امتثَلْتَ أمْرِى :

---

(١) **الجناس** : هو أن يتشابه اللفظان فى النطق ، ويختلفا فى المعنى . وهو نوعان :

١ - تام .

٢ - غير تام ، وهو ما ذكره المؤلف بـ « الجناس المحرف » ، وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد من الأمور التى ذكرها وهو هنا بين « مُحْيِ » و « مَحْيَا » .

نعم اللّه لا تحصى (*)

نعم الله وعطاياه كثيرة وافرة ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴾ [سورة إبراهيم ، الآية ٣٤] وهذه النعم هبات من الله لعباده المؤمنين .

وأما ما يجرى به الله من نعمه على عباده الجاحدين فهو « استدراج ، وإملاء » ليزدادوا إثمًا ، ولهم عذاب مهين ، وهو متاع فى الدنيا قليل ، ومأواهم جهنم وبئس المصير ، قال الله تعالى :

﴿ ... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ .

[سورة القلم ، الآيتان ٤٤ ، ٤٥]

وكذلك العصاة ، والفساق والظلمة : يستدرجهم بالنعم ، ويمهلون بالعذاب والبلاء ، ففى الحديث : « إن الله يملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » .

فاحرص أخى المسلم على نعم الله وعطاياه فى نفسك ومالك ، وقابلها باسطًا يد الرجاء والافتقار إليه تعالى ، واسع إليها برجاء ، وحسن أدب لرب هذه النعم ، لتنال من فيضها سعادة الدنيا والآخرة .

* * *

٦ – فَلَرُبَّتَمَا [1] فَاضَ المحْيَا بِبِحُورِ المَوْجِ مِنَ اللُّجَجِ

« **فَلَرُبَّتَمَا** » : أيْ وقْتَ . « **فَاضَ** » : أيْ كَثُر فيهِ .

« **المَحْيَا** » بفتْح الميم : أيْ مكان الحيَاةِ .

« **بِحُور المَوْج** » : وهو المرْتَفَع مِنَ الماءِ . **من** : أجْلِ .

« **اللُّجَجِ** » جمْع : لُجّة ، وهو : مُعْظم الماءِ .

شبّهْ المحْيا فى كَثْرةِ الأنْوارِ والمَعارِف بوادٍ فيهِ مَاءٌ مَلأَه وارْتَفَعَ علَى جَوانِبه . والجَامِع بيْنَهما : المحلِّيَّة . وهِىَ كوْنُ الوَادِى محلًّا لِلْماءِ ، والمَحْيَا محلًّا لِلْأَنْوَار والمَعَارِف ، وطوَى ذِكر المشبّهِ بهِ وأتَى بلازِمِهِ ، وهُوَ الفيْضُ ، فتَشْبِيهُ المحْيَا بالوادِى : **استِعارَة بالْكِنَايَة** . وإثْبات الفيْض لَهُ : **استِعارة تخيِيليّة** .

ثم ذكَرَ أنّ الفائِض مِنْ ذَلِكَ المحْيا بحُورٌ ، بمعْنَى أنّه انْبَسَط علَى الجَوَارِح وسائِرِ الجَسَد مِنَ المَحْيا المشبَّهِ بالْوادِى ، أنْوارٌ عظِيمَة وأسْرارٌ كثِيرَة شَبِيهَةٌ فى كثْرَتها وانْتِشارها وتراكُمِها بالبُحور .. وهذَا تشْبِيهٌ آخَر فى الفائِض علَى حدِّ **الاسْتعارَةِ الأصْلِيّة المصرَّحَةِ** ، ثمَّ **رَشَّحَها** بالمَوْج واللّجَجِ مبَالغَةً وإلْحاقًا لهَا بالحَقِيقَةِ ، حتَّى يَبْنِى عَلَيْها ما يَبْنِى علَى الحَقِيقَة .

وحاصِلُ المعْنَى : أنّكَ إذَا امْتثَلْتَ الأمْرَ المذْكورَ فقَدْ غمَرَكَ فضْلُ اللَّهِ فى الدّارَيْن ، فيفِيضُ علَيْكَ خيْرًا كَثِيرًا ، كالْبُحورِ المتلاطِمَةِ أمْواجُها مِنْ كثْرَتها .

وفى « رُبَّ » سبعونَ لغةً : ضَمّ الرّاءِ ، وفتْحُها معَ تشْدِيدِ البَاءِ ، وتخْفِيفُها مفْتُوحةً فى الضمِّ والفتْحِ ، أوْ مضْمُومَة فى الضمّ .. كلٌّ مِنَ الستَّةِ معَ تاءِ التّأنِيثِ ساكِنَةً ، أو مفْتُوحَةً ، أوْ مضْمُومَةً ، أوْ معَ « مَا » أو معَها

---

(١) رُبَّتَمَا : لغة فى « رُبَّ » وهى تفيد التكثير هنا بقرينة المقام . راجع : (آخر شرح البيت) .

... ...

بأحْوالِ التّاء ، أوْ مجرّدَةً مِنْها .. فذَلِك ثَمانٍ وأرْبَعون ، وضمّها وفتْحُها مع إسْكانِ البَاءِ . كلٌّ مِنْهما مَعَ التّاء مفْتوحةً أو مضْمُومَةً ، أو مَع « ما » أوْ معَهمَا بحالَتِي التّاء أوْ مجرّدَةً فذَلِك ثِنْتَا عشْرَةَ .. و « رُبَّتَمَا » بضمّ الرّاء وفتْحها . كلٌّ منْهمَا معَ إسْكان البَاءِ أوْ فَتْحِها أوْ ضَمّها مخفَّفَة أوْ مشْددةً فى الأخِيرَيْن .. فذَلِكَ عشْرَة . فالجمْلَة سَبْعون .

وإنْ نَظرْتَ إلَى تحْريك التّاءِ بِالكَسْر كمَا اقْتَضَاهُ تعْبِيرُ مَنْ عبّر فِيهَا بتحْرِيكِها بدَلَ فَتْحها زادَتْ اللُّغات على ذَلِك سِتًّا [1] .

قالَ ابنُ هِشَام [2] : « وليْسَ معْنَاها التّقْلِيل دَائِمًا . خِلَافًا لابْنِ دُرُسْتُويْه وجَماعَة .. بلْ تَرِدُ للتّكْثِيرِ كثيرًا وللتّقْلِيل قَلِيلًا » انتهى .

وقيلَ : لا تُدلّ علَى شيْءٍ منْهما إلّا بقرِينَة .

وفى البيت : **الائْتِلافُ** . وهو الجمْع بينَ المتنَاسِبات ، لا بالتّضَاد ، وهوَ فى « الموج » و « اللجج » ، **والإيغال** ، **والتّشْمِيم** ، وقد مرّ [3] . وهما فى قوله : « من اللّجَج » [*] .

---

(١) عبارة المخطوط : « وفى (رب) ثمانى عشرة لغة : ضم الراء ، وفتحها ، مع تشديد الباء وتخفيفها ، مفتوحة مع تاء التأنيث الساكنة ، ومفتوحة ومع التجرّد منها . فذلك اثنى عشرة . ضمها وفتحها مع إسكان الباء ، وضمها مع التشديد والتخفيف أو مع (ما) أو معهما ، أو مجردة عنهما ، فذلك ستة عشر ، وضمها مع إسكان الباء وضمها ، فهذه ثمانى عشرة » .

(٢) ابن هشام . هو : عبد الله بن هشام بن يوسف المصرى . الإمام المشهور . ولد فى القاهرة سنة ٧٠٨ هـ ، وتوفى سنة ٧٦١ هـ ، وله مصنفات كثيرة كلها نافع فى العربية . من مثل : « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » ، و « المغنى » وغير ذلك الكثير .

(٣) انظر : شرح آخر البيتين (٤ و ٥) .

التعرّض للنفحات ، سبب فيضها على العبد [*]

أى : فإذا امتثلْتَ ما أوضحناه ، وسلكت الطريق الذى رسمناه ، فتعرّضت للنفحات والهبات الربانية راضيًا ، صابرًا ، راجيًا ، مسلمًا وجهك لله ، متوكلًا عليه كما هو شأن المتقين ، فإنه يغمرك =

... ...

ثـمّ استأنفَ فقالَ :

= غزير فيضها ، ويعمك سابغ فضلها البالغ فى كثرته وعظمه مبلغ البحور الزاخرة ، ذات الأمواج المتلاطمة ، واللجج المتعاظمة .

ومن ذلك تفريج الكربة ، وإزالة العسرة ، قال الله تعالى : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ [سورة الطلاق ، الآيتان ٢ ، ٣] .

وقوله : ﴿ ... وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية ١٩٤] .

* * *

٧ - وَالْخَلْقُ جَمِيعًا فى يَدِهِ فَذَوُو سَعَةٍ وَذَوُو حَرَج

« **والخَلْق** » بمعنى : المخْلُوق . حالَة كوْنِه . « **جَمِيعًا** » : أىْ مَجْمُوعًا .

« **فى يَدِهِ** » : أى قوَّتِه ، أوْ نِعْمَته . « **فَذَوُو سَعَةٍ** » : أى يَسَارٍ .

« **وذَوُو حَرَج** » : أىْ ضِيق .

وفى نسْخَةٍ : « مِنْ ذِى سِعَةٍ أوْ ذِى حَرَج » نبّه بذلِك علَى جَلالِ اللَّهِ وكمَالِ إحَاطَتِه بعالَمِ الغيْبِ والشّهادَة ، وبفَضِيلةٍ لَا يُعْلم كنْهَه إلّا اللَّه ، قالَ تعالى : ﴿ ... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ... ﴾[1] .

ودل تَنْوِينُ « **سَعَةٍ** » و « **حَرَجٍ** » على تَنْوِيعِهمَا وتكْثِيرهما .. فيشْمَلَانِ الغَنِىَّ والفَقِير ، والعِلْمَ والجهْلَ والجاه ، وغيْرها .

و « **سَعَةٍ** » بفتْح سِينها لفْظًا ، وكسْرِهَا تقْدِيرًا ؛ لأنّ المضَارِعَ مِنْها بالكَسْر ؛ لأنّه فتح لحرْفِ الحَلْق . وأصْلُها : وِسعة بكسر الواو ، فأعلّت تَبعًا للمضارِع بحذْفِ الوَاو ، لوقُوعِها فيهِ بيْن ياءٍ مفْتُوحَة وكسْرَةٍ مقَدّرة .

وفى البيْت : **الجمْع والتّفريق** . وهو : أن يجْمَع شيئان فى حُكْم ، ثمّ يفرّق بيْنَهما ، كمَا جمَعَ النّاظِم الخَلْقَ فى نُفُوذِ قدْرَةِ اللَّهِ تعالَى فِيهم ، ثم فرّقَ بيْنَهم بأنْ فَصَّلَهم إلَى موَسّع عليْه ، ومضَيّق عليْه .

والتّشْميم : وقد مرّ ، وهو فى « جميعًا » .

والطباق : وقد مرّ ، وهو فى المصرَاعِ الثانى .

والتّرديد : وهوَ أنْ تعلّق لفْظَةً بمعْنًى ثمّ بآخر ، كما علَّق « ذَوُو » أوّلًا « بالسّعة » وثانيًا « بالحرج » ، ومنْه قوْله تعالى : ﴿ ... حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ ... ﴾[2] .

---

(١) سورة المدثر ، الآية (٣١) . (٢) سورة الأنعام ، الآية (١٢٤) .

... ...

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [1] .

(١) سورة الحشر ، الآية (٢٠) .

٨ - وَنُزُولُهُمُ وَطُلُوعُهُمُ فَعَلَى دَرَكٍ وَعَلَى دَرَجِ

« وَ » : أمَّا « نزُولُهُم » : أى الخَلْق . مِنْ عُلُوٍّ إلَى سُفْلٍ حِسًّا ، أوْ عقْلًا : أعْنِى برتْبَةٍ . « وَطُلُوعُهُم » : مِنْ سُفْل إلَى علُوٍّ كَذلك « فعَلَى دَرْكٍ » فى الأوّل ، « وعلَى دَرَجٍ » فى الثّانِى .

وفى نُسْخَةٍ : « فإلَى دَرَكٍ وَإلَى دَرَجٍ » يقال : النّارُ درَكاتٌ ، والجَنّةُ درَجاتٌ والمناسَبَة ظاهِرة .

نبّه بهذا البيْتِ ، وما بعْدَه علَى طلَبِ الخوْفِ ، والرّجاءِ ، والتّوكّل ، والتّسْليم لأمْر الله تعالَى تأْكيدًا لأمْر الصّبْر الّذِى هوَ أسَاسُ التّقْوَى .

وقدْ شبَّهَ ما حصَل للعبْدِ مِنْ محْسُوسٍ ومعْقُولٍ بالدَّرَكِ والدّرَجِ ، بجامِعِ المَحَلِّيّة ؛ لأنّ الدّرَكَ والدّرَجَ محَلّانِ لِمَنْ حَلّا فِيهما فى وقْتٍ مَخْصُوصٍ ، كما أنّ الانْتِقالَاتِ فى الأحْيانِ ، واكْتِساب المعَانِى السُّفْليّة والعُلْويّة محَلٌّ لِكَسْبِه ، مقدّرةٌ بمقَادِيرَ وصِفَاتٍ مخْصُوصَةٍ .. وأطْلَق اسْمَ المشبَّهِ بهِ على المشَبّه ، كما أطْلَق اسمَ النّزُولِ والطُّلُوعِ علَى اكْتِسَابِهِمَا مبَالغَةً **بالاسْتِعارَةِ التّحْقِيقيّة** .

وفى البيت : **الطباق** فى المصرَاعَيْن . والمناسَبة اللفْظِيّة فِيهمَا هى : الإتْيانُ بكَلِمَاتٍ مرتّباتٍ مقفًّياتٍ . كما فى الأوّل ، أوْ غيرُ مقفّياتٍ كما فى الثّانى .

واللفّ والنَّشْر : وهو أنْ يأتِى بأشْياءَ ، ثم تقابَل بأشْياء بِعدَدِهَا يرَدّ كلٌّ منْها إلَى ما يناسِبُه مِنْ غيْر تَعْيِينٍ ثِقةً بفهْم السّامع .

والترديد فى « علَى » .

والجناس اللاحق : وهو ما اخْتَلَفَتْ كلماتُه بحرْفٍ بَعيدٍ فى المخْرَج . وهو فى « دَرَكٍ » و « دَرَجٍ » كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

(١) سورة العاديات ، الآيتان (٧ ، ٨) .

٩ - وَمَعَـايِشُـهُمْ وَعَـوَاقِبُـهُمْ لَيْسَت فى المَشْيِ عَلَى عِوَجِ

« ومَعَايِشُهُم » فى الدّنْيا : مِنْ مطَاعِم وملَابِس ونحْوِها .

« وعَوَاقِبُهم » فى الآخِرة : من سَعادَةٍ وشَقَاوةٍ .

« لَيْسَت فِى المَشْيِ » إليْهِم .

« عَلَى عِوَج » بلْ مسْتَقِيمةً ؛ فإنّها مرَادَةٌ مقْدُورَةٌ لِلَّه تعالَى ، تتَوَجَّهُ إليْهم فى أوْقاتِها المخْصُوصَةِ ، كنُزُولِهِمْ وطُلُوعِهم .

وهمْز « معائش » شاذّ ؛ لأن ياءَها عيْنٌ للْكلِمَةِ ، بخلَافِ « صحَائِف » فإنّ ياءَها زائِدة .

وقد شبّه « المعايش » و « العَوَاقِب » لحصُولهَا شيْئًا فشَيْئًا بالماشى ، وأثْبَتَ لَهَا المشْى فتَشْبِيهُها بالماشى : **استعارة بالكناية** . وإثباتُ المشْيِ له : **استعارة تخييليّة** . وفيهِ إشارَة إلى الإجْمَالِ فى الطّلب .

وفى البيْت : **المناسبة اللفظية** .

والطباق :

والجمع : وهو أن يجْمع شيْآنِ فى حُكْمٍ فى قوْلهِ تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾[1] . وتلْك المذْكُورَات مِنَ السَّعة ، والحرَجِ ، والنّزولِ ، والطّلُوعِ ، والمعَايشِ ، والعوَاقِب(*) .

---

(١) سورة الكهف ، الآية (٤٦) .

السلطان الإلهىّ(*)

فى الأبيات : ٧ و ٨ و ٩

جمع الخلائق فى قبضة قدرته تعالى ، وتحت قهره وسلطانه ، ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية ١٨] يعطى ، ويمنح ، ويعز ، ويذل ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ويمرض ويشفى ، ويسعد ويشقى ، ويثيب ويعاقب ﴿ ... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .
[سورة فصلت ، الآية ٤٦]

فعلى العبد الشكر على السراء ، والصبر على الضراء ، والرضا بالقضاء ، فى كل أمر لربه ، وأن يدوم بين الخوف والرجاء ويخلص له تعالى العبادة والدعاء .

١٠ - حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حكَمَتْ ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسِجِ

« **حِكَمٌ** » مِنَ اللَّهِ جمْعُ : حِكْمَة . وهِيَ صوَابُ الأمْرِ وسَدَادُه ، لأنّه تعالَى يتَصرّفُ فى عَبِيدِه بما يَشَاء . وافَقَ غرَضَهُم أوْ لَا ، يخْلُق ما يَشاءُ ويخْتَار ، لَا يُسألُ عمّا يفْعَل وهمْ يسألون . وحظّ العبْدِ يا مَالِكَ يوْمِ الدِّينِ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نسْتَعِينُ .

« **نُسِجَتْ** » تِلْكَ الحِكَم . « **بِيَدِ** » : أى بقوّة الله تعالَى .

« **حَكَمَتْ** » : أىْ قضَتْ فى كلِّ الأُمُورِ ولا رَادّ لمَا قَضَى .

« **ثـمّ انْتَسَجَتْ** » تِلْكَ الحِكَمُ : أى الْتَحَمَتْ .

« **بالـمُـنْـتَسِجِ** » : أى المؤْتَلِف . والمرادُ بِهِ العبْدُ المقْضِيُّ عليْهِ بالمقادِيرِ .

شبّهَ تلكَ الأمُورِ فى تَعلّقِها بالعبِيدِ ، وتنَاسُبِها لَهُم مَعَ تأثّرِهم بِهَا ارْتِفاعًا وانْخِفاضًا بخُيُوطٍ تُنْسَج ، وأثْبَت لهَا النّسْجَ ، فتَشْبِيهُهَا بالخيُوطِ : **اسْتعارَةٌ بالكِنَايَة** . وإثْباتُ النّسْجِ : **اسْتعارة تَخْيِيليّة** . وذكْر اليَدِ : **ترشيح للاسْتعارة** . فنَاسَبَ النّسْجَ والخيُوط لكونِهِ بِهَا .

وفيهِ تنْبِيهٌ للعاقِل عَلَى تلَقّى المقَادِير بالقَبُول وتسْلِيم الأمْرِ للَّهِ تعَالَى ، للعِلْم بأنه لَيْسَ للعَبْد شَيْءٌ مِنَ الأمْر ، وإنّ الأمْرَ مُرْتَبِطٌ بمشِيئَةِ اللَّهِ تعالَى ارْتباطًا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ المعْقُولَاتِ والمأْلُوفَاتِ . والمراد « **بالحكم** » : المقادير المصوّرة بصورَة الخيُوطِ المنْسوجَةِ .. و « **انتسج** » مطاوع « **نسَجَ** » والنّسْجُ : الإلحام . و « **ثُـمّ** » للتعقيب بمعنى « الفاء » كما فى قوْل الشّاعر :

كهـز الـرديْنىّ تـحْـتَ العجـاجِ جرَى فِى الأَنَابِيبِ ثمّ اضْطَرَب [1]

---

(١) هـذا البيت هـو ما استشهد به ابن هشام وهو الشاهد رقم ٤١٥ فى كتابه « أوضح المسالك » ، ونسبه محقق « أوضح المسالك » إلى حارثة بن الحجاج الإيادى من كلمة يصف فيها فرسه . =

... ...

أو للتّراخى الرّتْبى ، لأنّ الانْتِساجَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ النّسْجِ رُتْبةً تأخُّرَ المعْلُول عَن عِلّته .

وفى البيْت : **الجناس المحرف** وقدْ مَرّ . وهو هنا فى « **حكم** » و « **حكمت** » .

والائتلاف : وهو هنا فى « **نسجت** » مع « **يد** » .

وشبْه الْجناس : وهوَ أنْ يجْمَعَ اللّفْظَيْن الاشْتِقاق أوْ شِبْهه ، وهوَ هُنا فى « **نسَجَتْ** » و « **انْتسَجَت** » و « **المنْتَسج** » .

وشبْه الازْدِوَاج : وهو أنْ يُؤْتى بجمَلٍ متعاطِفة بغيْرِ الوَاوِ مرَتّبٌ بعْضُها علَى بَعْضٍ ، وهو هنا فى « **نسجت** » و « **انتسجت** » .

والجناس : تشابُهُ اللّفظَيْن فى التلَفّظِ .

والازْدِواج : توالى كلمات الجِناس ، ومنْه قوْلُهم : مَنْ طلَبَ شيْئًا وجَدَّ وجَدْ . **وردُّ العجُز عَلَى الصّدْرِ** فى الفعْل الأوّلِ معَ الثّانى ، ومعَ اسْم الفَاعِل . **والتّشْميم** فى « **حَكَمَتْ** » .

والتّسْميط : وهو أنْ يُصَيِّرَ الشّاعرُ البيتَ أرْبعَة أقْسَامٍ ثَلَاثةً مِنْها على سَجْعٍ وَاحِدٍ ، وهو فى الأفْعَالِ(*) الثّلاثة .

= والشاهد فيه : « ثمّ اضطرب » على ما هو مفصل فى كتب النحو .

اقتران التقدير الإلهىّ بالحِكْمة(*)

اعلم أن جميع المقدّرات الإلهية من السعة والضيق ، والسعادة والشقاوة ، والمعايش الدنيوية ، والعواقب الأخروية ، لا تصدر عن الله سبحانه وتعالى ، إلا لحِكَم تقتضيها ، وتترتب عليها ، فكلها حِكَم وصواب وسداد ، قضى بها الحكيم الخبير أزلًا ، وأجراها على العباد فيما لا يزال .. وافقت أغراضهم أم لا .

وأشار الناظم بقوله : « حِكَمٌ نسِجَت بالمنْتَسج » إلى شدة تعلق هذه المقدّرات بالعباد ، المقضِىّ عليهم بها ، وأنه لا انفكاك لهم عنها ، ولا لها عنهم ، وأنه لا قوام لشئونهم المعاشيّة والمعاديّة =

... ...

وإذا كانَتْ المذْكورَاتِ « حِكَمًا » كما ذكر .

= إلا بها ، كما أنه لا انفكاك للسَّدَى عن اللُّحمة ، ولا للُّحمة عن السّدى فى الثوب المنسوج ، ولا قوام له إلا بهما معًا .

فليس شيء من هذه الشئون إلا بقضاء وتقدير ، وحكمة وتدبير من الحكيم الخبير .

* * *

وظاهر أن الرِّضا بالمقدر مع كونه واجبًا من حيث صدوره عن المدبّر الحكيم .. لا يمنع الدعاء بكشف البلاء ، فقد يكون الكشف معلّقًا عليه : ﴿ ... ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾ .

[سورة غافر ، الآية ٦٠]

ووعد بالإجابة : ﴿ ... أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... ﴾ [سورة البقرة ، الآية ١٨٦] .

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم ربه دعوات بليغات فى الشدة . تفوق الحصر .

* * *

١١- فَإِذَا اقْتَصَدتْ ثُم انْعَرَجتْ فَبِمُقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرِجِ

« **فإذَا اقْتَصَدَتْ** » : أى توسَّطَتْ فى نظَرِ العقْلِ .

« **ثمّ انْعَرَجَتْ** » : أى مالَتْ فيهِ .

« **فَبِمُقْتَصِدٍ** » : أى فاقْتصادُها وانْعِراجُها كائِنَانِ بمقْتَصِدٍ

« وبمُنْعَرِجٍ » بِكَسْر الصَّاد فى قوله : « فبمقْتَصِد » ، والرّاء فى قوله : « وبمنْعَرِج » وَهُو العبْدُ المقْضِىّ عليْهِ بها ، فيصِيرُ باقْتِصادِها فى نَظَرِهَا مُقْتَصِدًا ، وبانْعِرَاجِها فيهِ مُنْعَرِجًا .. كمَا يَصِير باكْتمالِهَا فيهِ مُكتَمِلًا ، فيتَعرَّفُ إليْه الحقُّ فى الأحْوَالِ الثّلاثة . فيتعرّفُ إليْه فى حَالِ اكْتِمالِهَا باسْمِه الجَوادِ المنْعِم الْكَرِيم الْغَنِىّ .. وفى حالِ اقْتِصادِها باسْمِه الحَكِيم ، اللّطِيفِ ، وفِى حالِ انْعِرَاجِها باسْمه الْقَاهِرِ ، العَدْل الحَكَم .

وتبدّلُ هذِه الأحْوَال مِنْ آثارِ القَدَرِ الّذِى اسْتأثَر اللَّهُ بعِلْمه ، وأخْفاهُ عَنْ خَلْقِه .. والْوَاجِبُ تَسْلِيمُ الأمْرِ لمَنْ لَهُ الخَلْق والأمْر ، لا إلَهَ إلَّا هُوَ ، وأجْرِ علَى هذَا باقى معَانِى أسْمائِه تعالى .

قال ابنُ عطاء اللَّهِ [1] : إنّ آدَمَ عليْهِ السّلَام لمّا تعرَّفَ إليْهِ الْحَقُّ سبْحَانَه بالإيجَادِ فنَادَاهُ آدَمُ : يا قَدِيم . ثمَّ تعرَّفَ إليْهِ بتَخْصِيصِ الإرَادَة . فَنادَاهُ : يا مُرِيد . ثمّ تعرَّفَ إليْه بِحِكَمِه ، لمّا نَهاهُ عنْ أكْلِ الشَّجَرةِ ، فنادَاهُ : يا حَكِيم . ثمّ قضَى عليْهِ بأَكْلِها ، فنَادَاهُ : يَا قَاهِرْ . ثمَ لمْ يعَاجِله بالعُقُوبَةِ إذْ أكلَها ، فناداه : يا حَلِيم . ثمّ لمْ يفْضَحْه فى ذَلِكَ ، فَنادَاهُ : يا ستَّار . ثمّ تابَ عليْه ، فنادَاه : يا تَوّاب ، ثمّ أشْهَدَهُ أنّ أكْلَهُ مِن الشّجَرَةِ لمْ يقْطَعْ عَنْه

(١) ابن عطاء الله السكندرى . تلميذ أبى العباس المرسى : من أشهر صوفِيّى زمانه ، ومن أشد خصوم ابن تيمية . توفى سنة ٧٠٧ هـ ، وله من المؤلفات : كتاب : « التنوير فى إسقاط التدبير » ، وكتاب « الحكم العطائية » ، وكتاب « لطائف المنن » وغير ذلك .
(طبقات الشعرانى رقم ٣١٢) .

... ...

وُدَّه ، فنادَاهُ : يا وَدُودُ . ثمَ أنْزلَهُ إلَى الأرْضِ ، ويسَّرَ لَهُ أسْبابَ المَعِيشَة ، فناداه : يا لَطِيف . ثمّ قوّاهُ علَى الّذِى اقْتَضَاهُ مِنْه ، فناداه : يا مُعِين . ثمّ أشْهَدَه سرَّ النّهْيِ ، والأكْلِ ، والنّزُولِ ، فناداه : يا حَكِيمُ . ثمّ نصَرَهُ علَى العدُوّ الكائِد لَه ، فناداه : يا نَصِير . ثمَّ ساعَدَه علَى أعْباءِ تكَالِيفِ العبُودِيّةِ ، فناداه : يا ظَهِير . قالَ : فمَا أنْزَلَهُ إلَى الأرْضِ إلّا ليُكْمِلَ لَهُ وجُوهَ التعرّفِ ، ويُقِيمَه فِى وظَائِف التّكْلِيف ، فكَمُلَتْ فيهِ العبُودِيَّتَانِ : عبودِيّة التّعرِيف ، وعبُوديّةُ التّكلِيف ، فعظُمَتْ مِنَّةُ اللَّهِ عليْهِ ، وتوَفّرَ إحْسانُه لدَيْه ، بعْدَ أنْ كانَ فى الجَنَّةِ متعَرِّفًا إليْه بالرِّزْقِ ، والعَطاءِ ، والإحْسَان ، فأرَادَ الحقُّ سبحانَه مِنْ خَفِىّ لطْفِهِ فى تدْبِيرِه أنْ يَأكُلَ مِنَ الشّجَرةِ ؛ ليتعَرّفَ إليه فِى الْأرْضِ بما تقَدّم ؛ لأنّ الدّنْيا محَلّ الوسَائِط والأسْبابِ ، والجنّة[1] محَلّ مشَاهَدةِ الإنْعَام .

ونبّهَ النّاظِمُ بـ « ثمَّ » علَى أنّ الانْعِرَاجَ مُتَراخٍ عمّا قبْلَه فى الرُّتْبةِ ، لقِلّتِه وكَثْرةِ مَا قبْله تَفَضُّلًا[2] مِنْهُ تعالَى ؛ لأنّ معامَلَتَه لخلْقِه بمقْتَضَى رحمانِيَّتِه أكْثَر ، ولِهذَا قالَ تَعالَى : ﴿ ... عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾[3] .

وقالَ صَلّى اللَّهُ عليْه وسلّم فيما حكَاهُ عَنْ ربّه : « إن رَحْمَتِى سَبَقَتْ غَضَبِى »[4] . والإنْسانُ يعُدُّ أيّام المحْنَة ، ولَا يَعُدّ أيّامَ النّعمَةِ .

---

(١) فى المخطوط : « والأسباب فى الجنة » .

(٢) فى المطبوع : « تفْضِيلًا » بدل : « تفضُّلًا » .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١٥٦) .

(٤) رواه البيهقى فى (الأسماء والصفات ٣١٩) .

... ...

وفى البيت : **الطِّبَاق ، والمناسبة اللّفظية بالتقفية وبدونها ، واللّفّ والنّشْر ، وشبْهُ الجناس ، ورَدّ العجُزِ علَى الصَّدْر .**

والإرْصَادُ : وهوَ أنْ يَجْعَلَ قبْلَ العجُزِ مِنَ الفِقْرَةِ أوْ مِنَ البيْتِ مَا يدُلّ عليْه إذا عُرِفَ الرَّوِىّ ، ومنْهُ قوْلُه تعالَى : ﴿ ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) (*) .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية (٤٠) .

تنوّع المقدّرات الإلهيّة (*)

فإذا علمت ما تقدم ، فاعلم أن المقدّرات الإلهية ، مع كونها كلها فى الواقع صوابًا فى كل أمر وحال ، فإن الحكمة الربانية تقتضى التناسب التام بينها وبين مواضعها ومتعلقاتها .

والمواضع فى الجملة لا تخرج عن وسط وطرفين ، ففى المواضع التى يناسبها الاعتدال والتوسّط تكون المقدّرات (مقتصِدة) أى متوسطة ، وفى المواضع التى يناسبها الاكتمال ، تكون (مكتملة) فوق المتوسطة ، وفى المواضع التى يناسبها الميل عن القصد تكون (منعرجة) دون المتوسطة .

فلكلّ موضع تقدير ، ولكل تقدير حكمة وتدبير ، والله بكلّ شىءٍ محيط ، ومن ذلك التقدير فى الأرزاق ، فإنه بالسعة لفريق ، وبالتضييق على فريق ، كما قال الله تعالى : ﴿ ... يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [سورة الرعد ، الآية ٢٦] وذلك لأن الحكمة تقتضى السعة فى الموضع الذى لا يصلح فيه الضيق ، والضيق فى الموضع الذى لا تصلح فيه السعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

[سورة الشورى ، الآية ٢٧]

بل لكلٍّ من السعة والضيق درجات ومراتب ، فقد تقتضى الحكمة فى السعة البسط الكثير على عبد ، والوسط على الآخر ، والأدنى على الثالث .

وكذلك الشأن فى درجات الضيق ومراتبه .

والحاصل : أن المقدّرات الإلهية حكيمة فى ذاتها ، وفى موضعها وتعلقها بالمحكوم عليهم بها فى كل حال وشأن ، فعلى العبد أن يكون على يقين من ذلك ، وأن يسلّم الأمر كله لله الذى له الأمر والتدبير ، تسليم رضا وإذعان وقبول ، وإن جهل الحكمة أو لم يوافق القدر غرضه وهواه .

* * *

١٢ - شَهِدَتْ بِعَجَائِبِهَا حُجَجٌ قامَتْ بِالأَمْر عَلَى الْحِجَجِ

« **شَهِدَتْ بِعجَائِبِهَا** » : أى الحِكَم ، أوْ أنْواعُ المخْلُوقات .

« **حُجَجٌ** » بضمّ الحاءِ : أىْ أدِلّة . كما شَهِدْت بكَمالِ وجُودِ صَانِعها .

« **قامت** » : أى اسْتَقامَتْ ، أوْ دَامَت ، أو ظَهَرتْ ، أو غلَبَت ، وفى نسْخَةٍ « فاقت » « بالأمر » : واحدُ الأمور : أى الشّأْنِ ، أو الوَصْفِ ، أوْ واحِدُ الأوَامِر ، أى : القوْل الطّالِبِ لِلْفِعْل .. وكلٌّ مِنْها مُرَاد .

أىْ قامَتْ الحُجَجُ بأنّ المؤثِّرَ فى كلِّ أمرٍ هوَ اللَّهُ تعالَى كما هُوَ مقرَّرٌ فى مَحَلّه .

وقيل : المراد الشّأْنُ أو الوَصْف : أى قامَتْ بشأْنِ الرُّبُوبيّةِ أوْ بوَصْفِها .

« **علَى** » مَمَرٌّ . « **الحِجَجَ** » بكسْر الحاءِ : أى السنين . وقيلَ بضمِّها : أى الأدِلّة الدّالّةُ[1] علَى أنّ المؤثِّر العقُولُ أوْ نحْوِها ، كدلِيلِ الفلَاسِفَة ، ودَلِيل الطّبائِعيّين ، والمنجِّمين ، وغيرهم .

وفى كلَامِه[2] **استعارة** . إمّا بالتّبعِيّة ، بأنْ شبَّهَ دلالةَ الحِجَج فى كمَالِ وضُوحِها بالشّهَادَةِ ، ثمّ اشْتَقّ الفعْلَ مِنْها . وإمّا بالكِنَايَةِ بأنْ شبّه الحِجَجَ فى إفَادَتها المدْلولَ بالشّهُودِ ، وأثبَتَ لهَا الشّهادَة ، فتشْبِيهها بالشّهُودِ[3] : **اسْتعارَةٌ بِالكِنايَة** . وإثْباتُ الشّهَادةَ لَهَا[4] **اسْتعارَة تخْيِيلية** .

وفى البيت : **التّرديد** ، **ورد العجُز علَى الصّدْر** ، وإنْ ضُمّت (حاءُ)

---

(١) فى المخطوط : « الدالة » ساقطة .

(٢) فى المخطوط : « وفى كلامهم » بدل : « وفى كلامه » .

(٣) فى المخطوط : « فتشبيهه لها بالشهود » إلخ .

(٤) فى المخطوط : « فيكون إثبات الشهادة لها » .

... ...

« الحجج » . **والجناس المحرف** . إن كُسِرت . **والتتْميم والإيغال** (*) .

* * *

دلالة عجائب المقدّرات على الوحدانية (*)

فى هذه المقدرات الإلهية ، وسائر الشئون الربانية ، عجائب ، تنطق بوحدانية الخالق ، وإحاطة علمه ، وكمال قدرته : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء الآية ٤٤] .

وتشهد بها الأدلة والبراهين القاطعة المتواترة فى كل حال :

وفى كلِّ شىءٍ لهُ آيَـةٌ تـدُلُّ عـلَى أنّـهُ الْوَاحِـدُ

فإذا عرف المؤمن ذلك ازداد إيمانه ، وقوى بالله يقينه ، وكان من أمره على بصيرة وسداد .

* * *

١٣ - وَرِضًا بِقَضَاءِ اللَّهِ حَجًا فَعَلَى مَرْكُوزَتِهِ فَعُجِ

« **ورِضًا بقَضَاءِ اللَّهِ** » تعَالَى . « حَجًا » بفتْحِ الحاءِ ، معَ فتْحِ الجِيم وكسْرها : أى حقِيقٌ علَى كُلِّ مؤْمِنٍ ؛ ليَصُونَ بهِ إيمَانَهُ وسائِرَ طاعَاتِه .

وبكسْرِهَا معَ فتْحِ الجِيم : أى عقْل بحذْف مُضَافٍ : أىْ ثمرَته ، أو جَعْلِه العقْلَ ؛ مبالَغة ؛ لأنّه سببٌ لِلسّعادَة الدِّينيّة ، والدّنْيَويّة . فجعْلُه العَقْل الّذِى هوَ أشْرَفُ ما منَحه الله الإنْسان [١] ، و « اللَّهُ » عَلَمٌ علَى الذّاتِ الْوَاجِبِ الوُجُودِ ، المسْتَحِقّ لجمِيعِ المحَامِد .

و « **القَضَاءُ** » هوَ : الحُكْم بالكليّاتِ مُجْملةً فى الأزَلِ ، و « **القَدَرَ** » هو : الحُكْمُ بوقُوعِ جزْئِيّاتِها مفصَّلةً فيمَا لَا يزَالُ . قالَ تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [٢] ، ويقْرُبُ مِنْ ذلِك قوْلُ بعْضِهم : القَضَاءُ : إيجادُ جميع المخْلوقاتِ فى اللّوْحِ المحْفُوظِ مُجْمَلةً . والقدر : إيجادُها فى الأعْيان مفصّلةً . قالَ تعالى : ﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [٣] : أى فأبْرزَهُ علَى ما سبَقَ فى عِلمِه .

ويطلَق القضاء : علَى المقْضِىّ . ومنْهُ ما فى البخَارِى : « اللّهمّ إنِّى أعوذُ بِكَ مِنْ دَرْكِ الشّقَاءِ وسُوءِ القَضَاءِ وشَمَاتَةِ الأعْداء [٤] » . وهذَا لَا يَجِبُ الرّضَاءُ بِهِ مُطْلقًا ، بلْ إنْ كانَ واجبًا كالإيمَانِ وَجَبَ الرّضَاءُ به . أوْ منْدوبًا نُدِبَ . أوْ مُبَاحًا أُبِيحَ . أوْ مكْروهًا [٥] كُرِه . أو حرَامًا حُرِّم . بخلَافِ القَضاء بالمعْنَى الأوّلِ يجبُ الرّضَا بِهِ مطْلَقًا .

فالمقضىّ عليْهِ بمعْصِيَةٍ مِنْ كُفْرٍ أوْ غَيْرِهِ يَحْرُمُ عليْهِ الرّضَا بها ، مِنْ

---

(١) فى المطبوع : « أشرف ما منحه الإنسان » بدل : « ما منحه الله الإنسان » .

(٢) سورة الحجر ، الآية (٢١) . (٣) سورة الفرقان ، الآية (٢) .

(٤) فى المطبوع : « وشماتة الأعداء » ساقطة ، والحديث أخرجه القرطبى فى التفسير (٢٩١/٧) .

(٥) فى المطبوع : « أومكْرَهًا » بدل : « أو مكرُوهًا » .

... ...

حيْثُ إنّها مُكْتَسِبَةٌ لهَا ومنْهِيٌّ عنْها .. ويَجِبُ عليْه الرّضَا بِها مِنْ حيْثُ إنّها خلْقُ اللَّهِ تعالَى وإيجَادِه ، لأنّه متَى سَخَطَها كأنْ قالَ : لمَ فعَلَ بِى هذا ؟! ، أوْ أنَا لَا أسْتَحِقّه !! كانَ ذَلِكَ كُفْرًا أوْ معْصِيَةً أخْرَى بحسَبِ حَالِه لخبَرِ : « إنّ اللَّهَ يقولُ : مَنْ لَمْ يرْضَ بقَضَائى ولَمْ يَصبر علَى بلَائى ولَمْ يَشْكُر نَعْمَائِى [1] فليتخذ إلهًا سواى » [2] .

والرّضَا قِسْمان : قسْمٌ يَكونُ لكُلِّ مكلّفٍ ، فهوَ مَا لَا بُدّ مِنْهُ فى الإيمَانِ .. وحقِيقَتُه : ألّا يعْترِض على حُكمِ اللَّهِ وتقْدِيرِهِ . وهوَ ما أشارَ إليه النّاظِم بمـا مرّ ، وقسْمٌ لَا يكونُ إلّا لأرْبَابِ المقَامَاتِ ، وذوِى النّهايَاتِ . وحقِيقَتُه : ابْتهاجُ القلْبِ وسرُورُه بالمقْضىّ . قالت رابعةُ رَضِىَ اللَّهُ عنْها وقدْ سُئِلَت : متَى يكونُ العبدُ رَاضِيًا ؟ فقَالَت : إذَا سرَّتْهُ المُصِيبَةُ كما سرّتْه النِّعْمـة .

واخْتلفُوا فِى هذَا : هَلْ هُوَ مِنَ المقَامَاتِ أَوْ مِنَ الأحْوَالِ ؟ فقالَ أهلُ خُراسَان [3] : بالأوّل ، ومعْناه : أنّهُ مكْتَسَبٌ للعبْدِ ، وهوَ نِهايَة التّوكّل .. وأهْلُ العِراقِ : بالثانى ، وليْسَ مكْتَسَبًا بلْ يَحُلّ بالقلْبِ كسَائِرِ الأحْوَال [4] .

---

(١) فى المخطوط : « ولم يشكر نعمائى » لم تذكر فى الأصل وإنما ذكرت فى الهامش نتيجة المقابلة .

(٢) أخرجه ابن عساكر فى (تاريخه ١٢٨/٦) .

(٣) **خراسان** : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند .
ومن أمهات بلادها : نيسابور ، وهراة ، ومرو ، ونسا ، وأبيورد ، وسرخس . راجع : (معجم البلدان) .

(٤) كتب فى هامش المخطوط بخط مخالف للأصل ما نصّه :
« قيل للحسين بن على رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول : إن الفقر أحبّ إلىّ من الغنى ، والسقم أحبّ إلىّ من الصحة !! فقال : رحم الله أبا ذر . أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله ، لم يتمنّ غير ما اختار الله له » . =

... ...

قالَ بعضُهم : ويمْكِنُ الجمْعُ بيْنهما بأنّ بِدايَةَ الرّضَا مُكْتَسَبة ، فهوَ مِنَ المقَامَاتِ ، ونهايَتُه غيْرُ مُكْتَسَبَة ، فهوَ مِنَ الأحْوَالِ .

وإلَى هذا القسْم مع التّنبِيهِ علَى أنّهُ مِنَ المقَامَاتِ ، وإنّ القسْم الأوّل أسَاسُه .

أشار الناظِمَ بقوْلِه : « **وعلَى مرْكُوزَتِهِ** » : أى لَا علَى غيْرِها .

« **فَعُج** » : أى فاعْطِف . يقال : عجْتُ البعِيرَ أعُوجهُ عوجًا ومعاجًا : إذَا عَطفْتَ رأسَه بزمامِه .. أىْ لكوْنِ الرّضَا حقِيقًا علَى كلّ مؤْمِن أوْ لكوْنِهِ أجلّ مطالِبه ، فاعْطِفْ علَى أعْلاهُ وأشْرَفِه : الّذِى هوَ فى شَرَفِهِ ومدَارُ صحّة الإيمَان عليْه ، والتوصّلُ إليْه مِنْ جَمِيعِ جِهاتِهِ وأسْبابِه كمرْكَز الدّائِرة .

وبهذا عُلِم أنّه شَبّهَ الرّضَا بالدّائِرة ، وأعْلاهُ وأشْرَفه بمرْكَزِها . ورَشّح هذِه **الاستعارة** باستعارة « **العوج** » : الّذى هوَ العطْف للطّلَبِ الكَائِن مِنْ جَمِيعِ الجهاتِ والأسْباب .

وفى البيت : **المناسبَةُ اللّفْظية** من « **رِضَا** » و « **حِجَا** » بوزْنه ، **والاتّساع** : وهوَ أنْ يأتِى الشاعِرُ ببيْتٍ يتّسِعُ فيه التّأوِيل(*) .

= « ذكر الإمام أبو القاسم القشيرى أن موسى عليه السلام قال : اللهمّ دُلّنى على عمل إذا عملته رضيت علىّ . فقال يابن عمران ، إنك لا تطيق ذلك ، فخرّ موسى ساجدًا متفرغًا . فقال: يا ابن عمران ، رضاى فى رضاك بقضائى » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضى الله عنه : « ليقلّ همُّك .. ما قدر يكن . وما لم ترزق لم يأتك » . شارح بصروى .

معنى الرّضا بالقضاء(*)

تقدم فى شرح البيت الثالث (٣) أن الرضا بقضاء الله وقدره يطلق بمعنى : عدم السخط . والاعتراض عليه حلوًا كان أو مرًّا ، وأن ذلك ضرورى ، لتحقيق الإيمان . =

... ...

= ويطلق بمعنى : الابتهاج والمسرّة كيفما كان .. وهو المراد هنا .

وهو معنى قولهم : « الرضا إخراج كل كراهية للقضا من القلب ، حتى لا يكون فيه إلا الفرح والسرور به .

أو هو سرور القلب بمُرِّ القضاء كحلوه .

أو هو استقبال الأحكام الإلهية بالفرح .

سئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضيًا ؟

فقالت : إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة .

وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إليّ من أن أقول لشيءٍ قضاه الله تعالى ، ليته لم يقضه .

والرضا بهذا المعنى : مرتبة أعلى ، ودرجة أرفع ، من الرضا بالمعنى الأول ، لا يبلغها إلا أرباب المقامات ، وذوو النهايات . والجدير بالعارف أن يكون لها طالبًا ، إذ هى سنام الرضا وذروته .

* * *

أما القضاء : فيطلق تارة على الحكم الإلهى ، وهو فعله تعالى ، وتارة على نفس الأمر المقضى ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « نعوذ بالله من جهد البلاء ، ودَرَك الشقاء ، وسوء القضاء » ، وهو بهذا المعنى منه ما هو مرضى مأمور به كالإيمان والطاعات ، ومنه ما هو مكروه ومنهى عنه كالكفر والمعاصى ، والكل مخلوق له تعالى واقع بإرادته ، إذْ ثبت بالدليل القطعى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء .

والرضا بالنوع الأول ، واجب ، وبالثانى ، محرّم . قال الله تعالى : ﴿ ... أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾ [سورة يوسف ، الآية ٤٠]

قال حجة الإسلام الغزالى : « إن الشر والخير داخلان فى المشيئة والإرادة .. ولكن الشر مراد مكروه . والخير مراد مرضى به » .

* * *

١٤ - وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدًى فاعْجِلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ

« وإذَا انْفَتَحَتْ » لَكَ « أبْوَابُ هُدًى » : أى الهُدَى . بأنْ خَلَقَهُ اللَّهُ فيكَ « فَاعْجِلْ » : أى فأسْرِعْ « لِخَزَائِنِهَا » جمْع : خِزَانَةٍ بكَسْر الخَاء « وَلِجِ » : أى ادْخُل .

فيها استعَارَ الانْفِتاحَ لارْتِفَاعِ المَوَانِع الحسِّيَّة ، وانكِشَافِ الحُجُبِ النفْسِيّة ، وزَوَالِ العلَائِقِ المعْنَويّة ، المانِعَةِ مِنْ نيْلِ المقَامَاتِ والْمَعَارِفِ .

واسْتعارَ الأبْوابَ لِتلْكَ الموانِع والحُجُب والعلَائِق ؛ لأنّها مانِعةٌ مِنَ الهُدَى فلَا يَحْصُلُ فِى محلِّهِ إلّا بِزَوَالِها كالأبْوابِ لا يتَوَصَّلُ إلَى مَا وَراءِهَا إلَّا بفَتْحِها .

والعجَلَة : **كنايَةٌ** عنِ الجدِّ فى الطّلَب وقوّةِ العزْمِ ومجازٌ عنْهُما .

والوُلوجِ : **كنايَةٌ** عنِ الثّبوتِ فى تلْكَ المقَامَاتِ والمعَارِفَ .

والحاصل : أنه شبّهَ فى الصّدْرِ الهُدَى المتضَمِّن لمَا اكْتَسَبَهُ العبْدُ مِنَ المقَامَاتِ والمعَارِف بخَزَائِنَ لهَا أبْوابٌ مغْلَقَةٌ ، بجَامِعِ أنّ المشبَّهَ مظِنّةٌ لِلْقُرْب مِنَ اللَّهِ الّذِى هوَ أعْظَم مطْلُوبٍ ، والمشبَّهُ بهِ محَلٌّ للأمْوالِ النَّفِيسَةِ ، فالتّشْبِيهُ : **استعارة بالكناية** . وإثْباتُ الأبْوابِ للهُدَى : **استعارة تخْيِيليَّةٌ** ورشَّحَهُما بالانْفِتاح المُلائم لِلْأبْوابِ ، ثمَّ اشْتَقّ مِنْه الفِعْلَ ، فهوَ **اسْتعارة تبعيّة** ، ثم رتّبَ علَى ذلكَ العَجْزِ كمَا تَقَرَّرَ .

وتضمّنَ كلامُهُ التّنْبِيهَ علَى أصْل عَظيم فى السّلوكِ ، وهوَ مخالَفَةُ النّفْسِ فى شَهَواتِها ، والتّحَقّق بما ذُكِر ؛ لأنّ طبْعها الميْلُ إلى ترْكِ العِبَادَةِ ، وإلَى حظّهَا مِنْ فِعْلِها ؛ ولهذَا قالَ العلماءُ : مخالَفَةُ النفْسِ رَأْسُ العِبادَة ، ومَنْ نظَرَ إليْها باسْتِحْسانِ شيْءٍ مِنْها فقدْ أهلَكَها بمهْلِكاتها ، كالكِبْرِ ، والعُجْبِ ، والحَسَد ، وطُول الأمل .

... ...

وكيفَ يصحّ لعاقلٍ الرّضَا عنِ النّفْسِ واللهِ تعالَى يقُول : ﴿ ... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ... ﴾[1] .

و « **الهُدَى** » : قدْ يكُونُ لازِمًا بمعْنَى الاهْتِداء ، وهو : وِجْدَان الطّرِيق الموَصِّل للمطْلوبِ ، كما مرَّت الإشَارةُ إليْه .

ويقابِلُه « **الضَّلال** » : وهو فِقْدَانُ الطّرِيقِ الموَصِّل .. وقدْ يكونُ متعدِّيًا بمعْنَى الدّلالة علَى الطّرِيقِ عنْ أهْلِ الحقِّ ، وعلَى الطّرِيقِ الموَصِّل للبُغْيةِ عِنْدَ المعْتَزِلة .

ويقابِلُه « **الإضْلَال** » بمعنى : الدّلالَة على خلافِه كأضَلّنِى فلانٌ عنِ الطّرِيق ، أو عن الطّرِيقِ الموصّل للبغْية . و « الهُدَى » : إنما يُسْتَعمل فِى الخَيْرِ ، لأنه لُغَةً : الدّلَالةُ بلطْفٍ .

وأما قوْله تعالى : ﴿ ... فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[2] فَوارِدٌ علَى طرِيقِ التَّهَكُّم(*) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٥٣) . (٢) سورة الصافات ، الآية (٢٣) .

المبادرة إلى أبواب الهُدَى وخزائنه(*)

وإذا تحققت بمقام الرضا بالقضاء فى المحبوب والمكروه على السواء ، وانقشعت عن نفسك الحُجُب ، وزالت العوائق المانعة لها عن نيل المقامات السنية ، والمعارف الربانية ، وانفتحت لك أبواب الهداية ، فأسرع بالدخول بعزم وجِدٍّ وثبات ؛ لتنال من خزائنها ما به تنعَم وتسعَد . وإياك والإبطاء ، والتسويف ، فإنه قد يهجم عليك الموت ، ويحصل الفوت ، فتحرم الخير وتندَم ولاتَ حين مندم !

مجاهدة النفس والشيطان

وإذا كان من أقوى العوائق عن بلوغ هذه المقامات والمعارف : نفسك الأمارة بالسوء ، إذا تركتها سائمة فى مراتع الشهوات ، راتعة فى مباءة اللذات ، وانقدت إليها فيما تزينه من الهلَكات ، =

... ...

وفى البيت : **التمكين** : وهوَ أنْ يمهّد الناثِرُ لسَجْعَتِه ، والنّاظِمُ لقافِيَتِه تَمْهِيدًا بهِ يَأتِى بكلٍّ مِنْها مُتَمكّنةً فى مكانِها ، غيرُ نَافرةٍ ، ولا قَلِقَةٍ ، ولَا مُسْتَدْعَاةٍ لما لا تعلّقَ لهُ بالفِقْرَة أوْ البيْت .

* * *

= فاحرص كل الحرص على كبح جماحها ، وعصيان أمرها ، ومخالفة هواها ، وحاذرها ، وجاهدها ، وذلك هو الجهاد الأكبر ، وهو باب من أبواب الهدى ، بل هو رأس العبادات ، ومفتاح العادات . قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

[سورة النازعات ، الآيتان ٤٠ ، ٤١]

وقال صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتى : اتباع الهوى ، وطول الأمل ؛ فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة » .

(إتحاف السادة المتقين ٢٣٨/١) .

وقال سهل بن عبد الله : « ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى » .

وقال الجنيد : « النفس الأمارة بالسوء هى الداعية إلى التهلكة ، المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى ، المهتمة بأصناف السوء » .

وكذلك من أقوى العوائق على بلوغ تلك الغايات : اتباع خطوات الشيطان ، ووساوسه ، وآثاره ، ودسائسه ، فإنه كما ورد ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وينكت فى قلبه نكتة سوداء ، فيضله ويغويه ، وبالشهوات والمفاتن يغريه ، فيهلكه ويرديه إلا من عصمه الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... ﴾ .

[سورة النور ، الآية ٢١]

وفى الآيات والأحاديث من التحذير منه ومن فتنته ما لا يحصى ، فاحرص على مخالفته ، ومراغمته ، وطرده ، والاستعاذة بالله من شره وكيده والله يتولى هداك .

* * *

١٥ - وَإِذَا حَاوَلْتَ نِهَايَتَهَا فَاحْذَرْ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْعَرَجِ

« وإذَا حَاوَلْتَ » : أى طلَبْتَ « نِهَايَتها » : أى الأبْوابَ ، أو الهُدَى ، فإنّهُ يذَكّرُ ويؤنّثُ ، ولأنّه بِمعْنَى الخِزَانة .

والمعْنَى : إذا طلبْتَ الانْتقالَ إلَى مقامٍ أوْ حالٍ [١] « فاحْذَرْ إذْ ذَاكَ مِنَ العَرجِ » : أى فالْتَزِم فيهِ حُسْنَ الأدَبِ مِنَ الثّباتِ علَيْه ، وموَافَقَةِ مُرادِ اللَّهِ تعَالَى ، ولا تَخْتَر الانْتِقال عَنْه ، حتَّى ينْقُلَكَ اللَّهُ إلى ما هُوَ أرْفَع مِنْه ، فإنْ تشوّقْتَ إلَى الانْتِقال بنفْسِك ؛ لتبْلغَ الغايَةَ فقدْ بلَغت غايَةَ الجهْلِ برَبّكَ وأسَأْتَ الأدَبَ فى حَقِّه ولَا تَصِلُ إلَى مطْلوبِكَ فَكُن كما قالَ ابنُ عَطاءِ الله : « كُنْ عَبْدَ اللَّهِ فى كُلِّ شيْءٍ : عطَاءً ، ومنْعًا ، وعِزًّا ، وذُلًّا ، وولاية ، وعزْلًا ، وغِنًا ، وفقْرًا ، وقبْضًا ، وبسْطًا ، وفقْدًا ، ووَجْدًا ، وشِدّةً ، ورخاءً ، وفناءً ، وبقَاءً ، إلَى غَيْر ذلِكَ منْ مخْتلفَاتِ الآثارِ وتنقّلات الأغيار » .

وكنى عَنْ عَدم الوُصُولِ بـ « العَرَجِ » أو شبَّهَ بهِ عدَم دوَامِ الاسْتقامة ؛ لأنّ كُلًّا منْهمَا لا يوصّلُ مَعَهُ إلى مقْصِدٍ ، قرِيبًا ، أوْ لا يوصّلُ إليه البتّةَ .

وتضمّنَ كلامُه معَ ذِكْر التّحذِيرِ من حظُوظِ النفْسِ ، ومن التّحْذِيرِ :

---

(١) **المقامات** : هى المنازل الروحية التى يمرّ بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدًا فى إطارها ، حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثانى ؛ لكى يندرج فى السُّمُوّ الروحى ، من شريف إلى أشرف .. وذلك مثلًا كمنزل « التوبة » الذى يهيئ إلى منزل « الورع » ، ومنزل « الورع » يهيئ إلى منزل « الزهد » وهكذا حتى يصل الإنسان إلى منزل « المحبة » وإلى منزل « الرضا » .

إنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى ، فى تحقيق العبودية لله سبحانه .

أما الأحوال : فإنها النسمات الروحية التى تهب على السالك ، فتنعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطرًا تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه . وذلك مثل : الأنس بالله .

انظر : (الدكتور عبد الحليم محمود فى قضية التصوف ٤٨ ، ٤٩) .

... ...

الرُّكونُ إلَى غيْرِ الله فى أثْناءِ السُّلُوكِ . قال الشّيخُ أبو الحَسَن التّسْتُرِىّ [1] :

ولَا تلْتفِت [2] فى السّيْر غَيْرًا فكُلّ ما ... سِوَى اللَّهِ غَيْر واتّخذْ ذِكْرَهُ حِصْنا
وكلُّ مُقَامٍ لَا نُقِيمُ فِيهِ إنّهُ ... حِجَابٌ فَجِدّ السّيرَ وَاسْتنْجِد العوْنا
ومَهْمَا تَرَى كُلّ المراتِبِ تَجْتَلِى ... عَلَيْكَ فحُلْ عنْهَا فَعنْ مِثْلَها حُلْنا
وقلْ لَيْس لِى فى غيْر ذَاتِك [3] مَطْلَبُ ... فلا صُورَةٌ تجْلِى ولا طُرْفَة تُجْنَى

ثم علّلَ قوْلَه : « فاحْذَرْ » إلى آخِرِهِ بقوْلِه :

---

(١) نسبة إلى تَسْتر : مدينة فى إيران (عربستان) مركز تجارى مهم . سكانها شيعيون من العرب والإيرانيين ، من شدة ورعهم سميت بلدهم بـ (دار المؤمنين) .

(٢) فى المخطوط : « فلا تلتفت » ، وفى المطبوع : « ولا تتلف » .

(٣) فى المخطوط : « فى غير ذالك » بدل : « فى غير ذاتك » .

١٦ - لِتَكُونَ مِنَ السُّبَّاقِ إِذَا ما جِئْتَ إِلَى تِلْكَ الفُرَجِ

« لتكون من السباق » إلَى فُرَج الجنة « إذَا ما » [مَا] زائِدَة للتّأْكِيد (١) « جئْتَ » معَهُم « إِلَى تِلْك الفُرَجِ » أرادَ بالمجِيءِ : السّيْر . لا تُنْقَل الأَقْدَام ، بلْ بنَظَر القلْب .

فشبَّه النظَرَ فى المعْقُولاتِ الموَصّلة إلَى المطْلوبِ بالمجِيءِ الحِسِّى ، وشبَّه المنْظُورَ فيهِ ــ وهو المعقولات ــ بالْأَمْكِنَة ؛ لأَنّهَا محَلّ حرَكَةِ النّظَر ، كما أنّ تِلْكَ الأَمْكِنة محلٌّ لحَرَكَةِ الأَقْدامِ .. وأَطْلَق اسْمَ المشبَّه بهِ على المشبَّه ، علَى طرِيق **الاسْتعارة التّحْقِيقية** و« إلى » متعلّق بالسُّبَّاق ، فإنْ وصلْتَ إلَى تِلْكَ الفَرَجِ (*) .

* * *

(١) فى المخطوط : « زائدة للتأكيد » ساقطة .

وجوب رضا العبد بما أقيم فيه (*)

أى : إذا ولجت أبواب الهدى ، وبلغت ما قدّر لك ، من تلك الأحوال السنيّة ، والمقامات العليّة ، فاثبت فيما أقامك الله فيه ، فإنه مراده تعالى منك ، واحذر أن تختار لنفسك الانتقال عنه إلى حالٍ أو مقامٍ آخر أرفع منه حتى ينقلك الله إليه ؛ فإنك إذا اخترت لنفسك ، ولم ترض بما أقامك الله فيه ، وآثرت اختيارك على اختيار الله .. فقد أسأت الأدب مع ربك ، وحُرِمت الوصول إلى مطلوبك .

قال ابن عطاء الله : « كن عبد الله فى كل شىء : عطاءً ومنعًا ، وفقدًا ووجْدًا ، وفناءً وبقاءً ، إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الأغيار » .

فإذا حذرت ذلك تكون من السابقين إلى فُرَج الجنة .

فإن قيل : هل طَمَعُ العبد فيما عند مولاه من رفيع الدرجات .. ورجاؤه فى نيل الأعلى من المقامات ، يُعَدُّ من إساءة الأدب مع مولاه ؟

فالجواب : كلا بل ذلك يحمد منه إذا خلا عن رعونة النفس وحظوظها ، وخلصت النية فيه لله تعالى .. مع الرضا بما أقامه الله فيه ، وعدم التبرم به ، والتسليم له تعالى فى الأمر كله ، بحيث إذا أبقاه فى مقامه هذا ، ولم ينقله عنه إلى مقامٍ آخر أكمل ، رضى به وحمد الله عليه ، وشكر له منّته .. فالمدار على تجرّد العبد فى ذلك عن الرعونات والحظوظ والشهوات ، وعلى الإخلاص فى النيات لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيطلب الأعلى للمزيد من القرب والرضا . مع الرضا بما أقيم فيه إذا لم ينقل عنه والله أعلم . انظر : (شرح البيت رقم ٣١) والتعليق عليه .

١٧ - فَهُنَاكَ العَيْشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِجٍ وَلِمُنْتَهِجِ

« **فهُنَاكَ** »: أى لَا فِى غيْره . « **العيْشُ وَبَهْجَته** » : أى الحياةُ الكامِلَة وحسْنُها .

« **فلمبْتَهِج** » : أى مسْرُورٍ بمَا حصَل لَهُ مِن لذّةِ التّجلِّى علَى اخْتِلافِ رُتَبِها .

« **ولمنْتَهِجِ** » : من النّهْج ، وهو : الطّريق . واسْتُعِيرَ للتّقْوَى . فالمُرَاد : ولمُتّقٍ . وانْتِهاجُه بانْتِقاله فِعْلًا وحالًا فى معانِى التّقْوَى الظّاهِرَة والْبَاطِنَة الموصّلةِ إلَى صفْوِ اليَقِين المُوجِبِ للابْتِهاج : أىْ فاعْجبُوا لهَذَيْن الصِّفَتَيْن العظيمتين مِنْ بيْنِ النّاس ؛ لأنّ ما عدَاهُما إمّا هالِكٌ ، أوْ فى الخطَر .. والتّنْوِينُ فِيهَا للتّعْظِيم ، والتَّنْوِيع .

ولمّا اخْتلفَا فى المقامِ اخْتلفَا فى التّعْبِير عمّا فِى الضمِيرِ ، فالمبْتَهَج يقول : مخبرًا بذَوْقِهِ :

ذَكرْتُكَ إنِّى لَا نَسِيتُكَ لَمْحَةً وأيْسَر مَا فِى الذِّكْرِ ذكرُ لِسَانِى
وكدْتُ بِلا وَجْهٍ أمُوتُ مِنَ الْهَوَى وَهَامَ عَلَى القلْبِ بالخَفَقَانِ
فلمَّا أرَانِى الوَجْدُ أنّكَ حَاضِرٌ شهِدْتُكَ موْجُودًا بكلِّ مَكَانِ
فخاطبْتُ موْجُودًا بغَيْر تَكلُّمٍ ولا حَظْتُ مَعْلومًا بغَيْرِ عِيانِ

والمنْتَهِجُ يقولُ مخْبِرًا عَنْ حَالِ سيْرِه ومجاهَدَةِ نفْسِه بمرَاقَبةِ رَبّه :

كأنّ رَقِيبًا مِنْكَ .. برْعَى خَوَاطِرِى وآخَرَ يرْعَى ناظِرِى ولِسَانِى
فمَا رَمِقَتْ عيْنَاىَ بعْدَكَ منْظَرًا لغيْرِكَ إلّا قُلْتُ قدْ رَمَقَانِى
ولا خَطرَتْ فى السرِّ مِنِّى خطْرَةٌ لغيْرِكَ إلَّا عرَّجا بعنَانِى
وإخْوان صِدْقٍ قد بنَيْتُ حدِيثَهم وعرّجْتُ عنْهُم خَاطِرِى ولِسانِى
وما الدهر أسلو[1] عنْهُم غيْرَ أنّنِى وجَدْتُكَ مَشهودًا[2] بكُلِّ مَكانِ

(١) فى المطبوع : « وما الوهم أسلى » بدل : « وما الدهر أسلو » .

(٢) فى المطبوع : « مشهودِى » بدل : « مشهودًا » .

... ...

واعلمْ أنّ كلَّ مَنْ وصلَ إلى صفْوِ اليَقِين بطرِيقِ الذّوْقِ والوجْدَانِ ، فهو ذُو رُتْبَةٍ فى الوصُول وإنْ تفَاوَتُوا فيهَا : كالملَائِكةِ ، فمنْهم مَنْ يَجِدُ اللَّهَ بطريق الأفْعال فيفْنَى عَنْ فِعْلِه وفعْلِ غيْرِه ؛ لوقُوفِهِ معَ فِعْلِ الله تعالَى .. ويخْرج فى هذِهِ الحَالةِ من التّدْبيرِ والاخْتِيارِ ، وهذا تجلّى [1] بطرِيقِ الأفعال ، ومنهم مَنْ يوقَفُ فى مقَامِ الهيْبة والأُنْس بمَا يكلِّف قلبَه مِنْ مُطَالعَةِ الجمال والجلَال ، وهذا تَجلٍّ بطرِيقِ الصّفا ، ومنْهم مَنْ يترَقّى إلَى مقامِ الفناء مشْتمِلًا علَى باطنِه أنْوارُ اليَقِين والمشاهَدة فَفنىَ فى شُهودِهِ عنْ وُجُودِه . وهذا ضرْبٌ مِنْ تجَلِّى الذَّات لخوَاصّ المقرَّبين .

والمقرّبون : همُ الّذين أخذوا حظوظَهم ، وإراداتهم ، واستَعْملُوا فى القِيام بِحقوقِ موْلَاهُم عبوديّةً له وطلَبًا لمرْضَاتِه ، وهم العارِفُونَ ، أهْلُ صفْوِ اليَقِين ، وإليْهم أشارَ النّاظِم « بالمبتهج » .

والأبْرار : هم الَّذِين بَقَوا مع حُظوظِهم وإراداتِهم ، وأُقِيمُوا فى الأعمَالِ الصّالِحَة ومُقَامَاتِ الْيَقِين ليجْزُوا علَى مجَاهدَتِهم برفِيعِ الدّرَجات ، وهم الزاهدون . وإليْهِم أشارَ « بالمنتهج » .

ومعَ الأحْوَالِ المذْكورَةِ ينْبَغِى للعبْدِ أنْ يَعْلَم أنّه لمْ يصِلْ إلى شَيْءٍ ! فأيْنَ الوُصُول ؟! هيْهات ! أولَا ترَى أنَّ النبىَّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم « كانَ يَسْتَغْفِر فى اليوْم مئة مرَّة [2] » ، واسْتِغْفَارُه إنّما هوَ بِحسَب اخْتلافِ رُتَب التّجَلّى لَهُ ، حتّى يرَى أنّ كلَّ تجلٍّ بالنّسبَة إلَى مَا فوْقَه موجبٌ للاسْتِغْفارِ ، ولذَلِك قال : « لا أحْصِى ثناءً عليْكَ ، أنْتَ كما أثْنَيْت علَى نفْسِك » [3] .

(١) فى المطبوع : « تحل » بدل : « تجلّى » . (٢) أخرجه مسلم فى الذكر رقم (٤١) .
(٣) رواه أحمد (٩٦/١ ، ١١٨) .

... ...

وفى البيْت : **الجناس اللاحق ، والازدواج ، وشبه الجناس ، ورد العجز ، على الصدر ، والمناسبة اللفظية ، والطباق .**

وإذْ ثبَتَ أن العيْشَ الكامِلَ وبهْجتَه فى الجنّة ، ومِنَ المعْلُومِ أنّه لا يَحْصُل ذَلِك عادَةً إلّا بالأَعْمَالِ الصّالحَةِ (*) .

* * *

بهجة العيش للمبتهجين والمنتهجين (*)

أى : فإن بلغت تلك الفرج السنية ، وحللت دار المقامة العليّة ، فهناك الحياة الطيبة النضرة الدائمة للعارفين ﴿ ... وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية ٦٤] .

وهم فريقان :

١ - المبتهجون المسرورون بما ذاقوا من لذائذ التجلّى والشهود : وهم المقربون . أهل صفو اليقين ، الذين قاموا بحقوق مولاهم ، عبودية ، وطلبًا لمرضاته ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩] .

٢ - المنتهجون طريق التقوى ، والمتقلّبون فعلًا وحالًا فى معانيها الظاهرة والباطنة ، الموصلة إلى صفو اليقين ، الموجب لذلك الابتهاج : وهم الأبرار الزهّاد الذين أقيموا فى الأعمال الصالحة ، ومقامات اليقين ؛ ليجزوا على مجاهدتهم رفيع الدرجات .

وما سوى هذين الفريقين لاحظ لهم فى ذلك العيش النهيج ، بل هم إما هلكى أو فى خطر عظيم ، فاحرص كل الحرص على أن تكون أحد ذينك الفريقين . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

[سورة المطففين ، الآيات ٢٢ - ٢٨]

* * *

١٨ - فَهِجِ الأَعْمَالَ إِذَا رَكَدَتْ فإِذَا ما هِجْتَ إِذًا تَهِجِ

« **فَهِج الأعْمَالَ** » ، وفى نُسْخَة : « وهِجْ » بالواو . ويقَال : هاجَ فلانٌ الشّىءَ هَيْجًا ، وهِيَاجًا ، وهَيجَانًا : إذَا أثارَهُ وحرَّكه .

وهاجَ الشّىءَ : إذَا أثارَه وتَحرّك .. يتَعدَّى ولا يَتَعدّى .. وقدْ استَعْمَلها [١] النّاظمُ : أى أثِر الأعْمالَ وحرِّكْها والمعْنَى : أدِمْها .

« **إذَا رَكَدَتْ** » : أى سكَنَتْ . والمرَادُ ، قلت : « لأنّهُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلّم كانَ عمَلُه ديمةً » [٢] .

ولقوْله صلَّى اللَّهُ عليْه وسلّم : « أحَبّ العمَلِ إلَى اللَّهِ أدْوَمُهُ وإنْ قَلّ » [٣] .

« **فإذَا مَا** » [ما] [٤] زائِدَةٌ للتّأْكِيد . « **هجْتَ** » : أى أدَمْتَ الأعمَالَ .

« **إذًا** » بالتنوين ، أى : حين إذْ قلْتَ . « **تَهِجِ** » : أى تَدُمِ .

وفى البيْت : **الطباق : ورد العجز على الصدر ، والترديد ، وشبه الجناس ، والجناس اللاحِق .**

والإرصاد والتّعَطّف [٥] : وهو أن تعلِّق لفْظةً ، أو تصْرف مِنهَا بمعْنًى فى الصّدْرِ ، ثم بمعْنًى آخرَ فيما سِوَى الضّربِ مِنَ العَجُزِ .. وهو هنا فى

---

(١) فى المطبوع : « استعلمها » بدل : « استعملهما » .

(٢) البخارى (٣/٥٥) ، ومسلم فى المسافرين (١٣٩ - ٢٢١) .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته وروايته : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » ، وقال : صحيح عن عائشة رضى الله عنها . وأخرجه البخارى فى التهجد (٧) ، ومسلم فى المسافرين (١٣١) .

(٤) يقتضيها السياق .

(٥) **التعطّف** : هو ما يعرف فى علم المعانى بـ« الترديد » أيضًا ، وهو : أن يعلق الشاعر لفظة فى البيت بمعْنًى ، ثم يردها بعينها ، أو يعلقها بمعْنًى آخر ، كقوله :

مَنْ يَلْقَ يومًا على علّاته هَرِما يلْقَ السّمَاحة مِنْهُ والنّدَى خُلُقَا

انظر : (الكافى فى العروض والقوافى ١٩١ ، ١٩٢) .

... ...

«هجْ» و«هجْتَ» فشبّه المصرَاعَيْن فى انْعطافِ أحدهما علَى الآخِر بالعطْفَيْن فى كوْن كلّ منهما[1] يميلُ إلَى الجانِب الّذِى يَميلُ إليْه الآخَر .

والتخلّص : وهو الخروجُ ممَّا شِيبَ الكلامُ بهِ إلَى المقْصُودِ مَع رِعايَةِ الملَاءمة بينهما .

والناظم قد شَيّب كلامَه أوّلًا بذكْر أحْوالِ أهْلِ النُّورَانِيّاتِ مِن المُبْتَهجِين والمنْتَهجِين ، ثمّ ختَمَه بالإشارَة إلَى الوُصُولِ ، ثمّ حَضّهم علَى دوَامِ الأعْمالِ ، ثمّ خرَجَ من ذَلِك إلى ذكْرِ أحْوالِ أهْل البِدايَاتِ مع رِعايَةِ المُلَاءمة بينَهُمَا مِنْ حيثُ أنّ هؤلاءِ يُخاطَبُون بابْتِداء الأعمَال ، وأولئِك بدوامِها[*] .

ثم أشارَ إلى مقَام التّوْبة بتقْبِيحِ المعْصِيَة فقالَ :

---

(١) فى المطبوع : « منها » بدل : « منهما » تحريف .

وُجوب المثابرة على الأعمال الصالحة[*]

وإذا علمتَ أن العيش الرغيد النضر لذينك الفريقين إنما هو فى الجنة ، ومعلوم أن سبيله الأعمال الصالحة ، فأكثر منها قدر الطاقة ، ولا تركن إلى الدعة والراحة منها ، فقد يَقْضِي ذلك إلى تركها ، فإذا شعرت من نفسك بالميل إلى ذلك ، فبادرها بالجدّ فى العمل والمثابرة عليه ، وذكّرها غايته ، وما يترتب عليه من المُلْك العظيم والنعيم المقيم ، فعند ذلك تهيج وتنشط ، حتى يصبح ذلك ديدنها وعادتها ، بحيث تستأنس به ، وتستوحش مِنْ تركه ، وإن لم تفعل ذلك كان نصيبك الحرمان من ذلك النعيم .

وقد ورد : « إن الله لا يملُّ حتى تملّوا » [البخارى ٦٨/٢] ، وكان أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه فانشط للعبادة ، واعمل بقدر الطاقة ، حتى لا تملّها ، وتجد الراحة فى تركها .

والراحة من الأعمال فى الأولى - عناء وتعب فى الآخرة ، والطاقة فى الناس مختلفة جدًّا ، فقد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه » . (الترغيب ٤٢٦/١) .

وكان الإمام علىّ زين العابدين رضى الله عنه يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة .

فإذا كنت لا تطيق ذلك ، فاعمل قدر طاقتك بالطاعات وثابر عليها ، والله الموفق .

* * *

١٩ - وَمَعَاصِى اللَّـهِ سَمَاجَتُـهَا تَزدَانُ لِذِى الْـخُلُقِ السَّمِجِ

« ومَعاصِى اللَّهِ » تعالى « سَمَاجَتُها » مِنْ سَمُجَ بالضمّ : أى قَبُح .

« **تـزْدَانُ** » : أى تتَزَيّن ، وتحْسُن . « لذِى الـخُلُقِ » بضمّ الـخَاء واللّام : ما طُبِـع عليْه الإنْسانُ بلَا تكلّفٍ كالكَرَم والشّجَاعة .

« **السَّمِج** » : أى القَبِيح[1] . و« سماجَتُها » بدَلُ اشْتمال من المبْتدأ قبْله ، أو **مبْتَـدأ** : خبرَه « تزدان » وهو مَعَ خبَرِه خبَرُ الأوّل .

و« تزْدَانُ » : أصْلُه تزْتَيْن بوزْنِ تَفْتِعل ، من الزّيْن . تحرّكت الياءُ ، وانفَتَح ما قبْلَها قُلِبَت ألِفًا ، ووَقَعت (تاءُ الافْتعال) وهِىَ مِنَ الحرُوفِ الرّخْوةِ بعدَ الزّايِ الشّدِيدة فتنافَرتَا ، فأُبْدلَ من التّاء دَالًا ، وأُبْقيَت بحالِهَا . ويجوزُ قلْبُها زَايًا ، وإدْغامُها فى الزّاى قبلها[2] ، ويجوزُ قلْبُ الزّايِ دَالًا وإدْغامُها فى الدّالِ المبْدَلَة .

وفى البيت : **الطباق ورَدّ العجز على الصدر** .

ثم أشارَ إلَى ترْغِيبِ ذوِى النّهاياتِ فى مُدَاوَمةِ الأعْمالِ فى الطّاعةِ وقالَ :

---

(١) يقول : إن المعاصى قبيحة مرذولة ، وفاحشة ممقوتة ، لا يستحسنها ويميل إليها إلا ذو الطباع السقيمة ، والأخلاق الرديئة ، فيجب التوبة منها ، والإقلاع عنها ، والندم على وقوعها ، والعزم على عدم اقترافها .

(٢) فى المطبوع : « قلبها » بدل : « قبلها » تحريف .

٢٠ - وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ مُنْبَلِجِ

« **لطَاعَتِه** » : أى طاعَة الله . **وصبَاحَتِها** : أى جمَالها .

« **أنْوَارُ صبَاحٍ مُنْبَلِجِ** » : أى أضْواءٌ ظاهِرَةٌ ظهُورَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ الْواضِحِ .

وبها تذْهَبُ ظُلُماتُ الجهْل عَنِ القلْبِ ، وظلُماتُ القلْبِ عَنِ الرّوحِ ، ويفوزُ المُطِيع بالهناءِ مِنَ النّعِيم الّذِى منْه النّظرُ إلَى وجْههِ الكَرِيم .

والطّاعة : غيْر القرْبَة ، والعِبادَةِ ؛ لأنّها امْتثالُ الأمْرِ والنّهى .

والقـرْبةُ : ما تُقرِّبَ بِهِ . بشرْطِ معْرِفَة المتقرَّب إليه .

والعبـادَةُ : ما تُعبِّدَ بِهِ . بشَرْطِ النيّةِ فى معْرِفَةِ المعْبُودِ .

فالطّاعة توجَدُ بدُونِها فى النَّظَرِ المؤدِّى إلَى معْرِفَةِ اللَّهِ تعالَى ، إذْ معْرِفَتُه إنّمَا تحْصُلُ بتَمامِ النّورِ .. والقرْبَةُ تُوجَد بدُونِ العبادَةِ فى القرْبِ الّتِى لا تَحْتاجُ إلَى نيّةٍ ، كالعِتْق ، والوقف .

وظاهِرُ كلَامِهِ : أنّ للطّاعةِ أنْوارًا ، وإنْ كانَ المطِيعُ فاسِقًا ! وهُوَ كَذلِك ، قالَ ابنُ عطاء الله : ويكْفِى فى تَعْظِيم المؤْمنين ، ولوْ كانُوا عَنِ اللَّهِ غَافِلين قوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ... ﴾ الآية [١] . أثْبتَ لهُم الاصْطِفاء بالإيمان ، وإنْ كانُوا ظالمين [٢] (*) .

---

(١) سورة فاطر ، الآية (٣٢) :

الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .

(٢) رغّب فى طاعة الله إذ أنها شكر للنعم وإقرار بالمنن ، فقال : إن الطاعة جميلة مستحسنة ، يعشقها ذوو الطباع السليمة والأخلاق القويمة .

التّوْبـة من المعاصى والتّرْغيب فى الطّاعات (*)

أشار الناظم بعد ذكر مقامات ذوى النهايات إلى أول مقامات أهل البدايات . وهو التوبة من =

... ...

وفى البيت : **التّشْمِيم ، والإيغال ، وشبه الجناس .**

ثم أشارَ إلى ، ترْغِيب ذَوِى البِدَاياتِ فى فِعْل الطّاعةِ بتشْويقهم إلَى نساءِ الجنّة ، لأنّه أمْثل بحالِهم [1] فقالَ :

= المعاصى ، إذ المعاصى كفر بنعَمِه ، وجحود لمنَنِهِ ، وإباء لطاعته ، ومحادّة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن المعاصى قبيحة ، مرذولة ، وفاحشة ممقوتة ، لا يستحسنها ويميل إليها إلا ذوو الطباع السقيمة ، والأخلاق الرديئة ، فيجب التوبة منها ، والإقلاع عنها ، والندم على وقوعها والعزم على عدم اقترافها . قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار ... ﴾ [سورة التحريم ، الآية ٨] .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

[سورة الشورى ، الآية ٢٥]

ثم رغّب فى طاعة الله إذ أنها شكر للنعم ، وإقرار بالمنن وخضوعٌ ، وانكسارٌ ، وامتثالٌ ، لأمر الواحد القهار .

فقال : إن الطاعة جميلة مستحسنة ، وضيئة ، مشرقة ، يعشقها ذوو الطباع السليمة والأخلاق القديمة . بها تزكو النفوس ، وتستنير القلوب ، وتنضر الوجوه ، وهى تورث أهلها هناء عظيمًا ، ونعيمًا مقيمًا . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة النساء ، الآية ١٣] .

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المطففين ، الآية ٢٤] .

وأعظم من ذلك كله النظر إلى وجهه الكريم فى الجنة ، وهو الزيادة فى قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ... ﴾ [سورة يونس ، الآية ٢٦] .

* * *

(١) فى المخطوط : « لأنها أميل بحالهم » بدل : « لأنه أمثل بحالهم » .

٢١ - مَنْ يَخْطِبْ حُورَالْخُلْدِ بِهَا يَظْفر بالحُورِ وَبِالْغُنْجِ

« **ومَنْ يخْطِبْ** » بالجزْم « بمَنْ » الشّرْطيّة [١] . من الخِطْبة بكَسْر الخَاءِ . وهىَ طلَبُ التّزْويج : أى مَنْ طلَبَ من اللَّهِ تعالى .

« **حُورَ الخُلْدِ** » : أى نساء الجنّةِ . وفى نسخة : « حورَ العِين » .

« **بها** » : أى بالطّاعَةِ ، ويوفِ بِهَا « **يظْفَر** » بالجزم « بمن » : أى يفُزْ .

« **بالحُورِ** » : الكامِلات الحسْن اللّائِى لا يوجَد مثْلَهنّ فى الدّنْيا .

« **وبالغُنْجِ** » بضمِّ الغَيْن معَ النّونِ ، وإسكانُها ، وفتْحُها : حسنُ الشّكل بالكسْر : أى الدلّ [٢] . يقال : امرَأةٌ ذاتُ شكْل : أى دلٍّ وغَنْج . ويجوزُ فيهِ تقدِيرُ مضاف : أى بذوات الغَنْج . فيكونُ مِنْ عطْفِ الصّفات الدّالّ علَى اجْتماعِها فى ذَاتٍ واحدَةٍ مثل قول الشّاعِر :

إلَى المَلِك القرْمِ وابْنِ الهُمَامِ وليْث الكَتِيبَةِ فى المزْدَحم

وسُمِّيَتْ نساءُ الجنَّةِ بالحورِ الْعِين ؛ لأَنّهنّ شبِّهْن بِالظِّباءِ والبقَرِ . من الحَوَر بفتْح الحاءِ والْواوِ وهو : شدّةُ بياضِ العيْن فى شدَّةِ سَوادِها .

وسمِّيتْ الجَنّةُ بالخلْد ؛ لأنّها دارُ البقاءِ الدّائِم السّالم مِنَ المحْنة [٣] .

وفى البيت : **التّرديد** ، **والتّتْميم** ، **والإيغال** .

وإذا أرْدْتَ الظّفَرَ بالحُورِ العِينِ .

* * *

(١) فى المطبوع : « بمن الشريطية » بدل : « بمن الشرطية » .

(٢) فى المخطوط : « الدال » بدل : « الدل » .

(٣) أى : إذا أردت أيها العبد خطبتهن ، فمهورهن الطاعات والتقوى .. فغال فى المهر وأكثر منه ، تظفر بهن ، وتنعم بحسنهنّ ودَلهنّ ، وما فيهن من جمال وكمال .

٢٢ - فَكُنِ الـمَرْضِيَّ لَهَا بِـتُقًى تَرْضَـاهُ غَـدًا وتكُونُ نَـجِى

« **فكُنْ** » : الكُفْو « المَرْضِيّ لهَا بتُقًى » بمعنى : التّقْوى ، وتاؤُها بدَلٌ مِنَ الواوِ ، ووَاوْ (تقـوى) بَدلُ مِنَ اليَـاءِ ، بدَلِيل الوِقَايةِ فيهمَا : أى بسَبب تُقًى مِنْكَ . « **تـرْضَاهُ** » : بِأنْ تراهُ مقْبُولًا : أىْ مثابًا عليْه ؛ لموافقَتِه الشّرْعَ .

« **غـدًا** » : أى يوْم القيامة .

وأصْله (**غَـدَوٌ**) حذِفَت وَاوُه بلا عِوَضٍ ، وفى نسخة : (هوى) : أى هواكَ « **تكونُ** » بهِ هناك « **نَـجِى** » بالوقْفِ ، بحذْفِ الحرَكَهِ والألِف علَى لغَة ربيعة : أىْ نجيًا مِنَ المكْرُوهَـاتِ ... وجعلَ السّبَب فيما ذُكِرَ : التّقـوَى ؛ لأنّها أعْظَم الخِصَـال وأنْفَعها ؛ ولهـذَا وصّى اللَّهُ بهَـا الأوّلِـينَ والآخَـرِين ، فقـالَ : ﴿ ... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ ... ﴾[1] .

وفى الخبَر : « جاء رجلٌ إلَى النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلمّ فقالَ : أوْصِنِى . فقالَ : عليْكَ بتَقْوَى اللَّهِ ؛ فإنّها جِمـاعُ كلّ خَيْرٍ ، وعليْكَ بالجِهَادِ ؛ فإنّه رَهْبَانِيّةُ المُسْلِم ، وعليْكَ بذِكْرِ اللَّهِ ؛ فإنهُ نُورٌ لقلْبِك »[2] .

وحقيقتها : اجتنابُ ما يخافُ منْه ضرَرٌ فى الدِّين .

وفى البيْت : **التّـثْـميم** فى « غدًا » **وشبـه الجناس** .

ولما رغّبَ فى فعْلِ الطّاعةِ بما مرّ بتلاوَةِ القرآنِ وغيْرِها[*] فقال :

---

(١) سورة النساء ، الآية (١٣١) .

(٢) جاء فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم ٢٥٤٣) بهذه الرواية : « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإنه رؤحك فى السماء ، وذكرك فى الأرض » عن مسند أحمد وقال : حسن » .

التّشـويق إلى الطاعات بما فى الجنّـة من الحور العين[*]

ولما كانت الطاعات سبيل العيش الهنئ فى جنة الخلد ، رغب الناظم فيها ، وشوق إلى ذلك =

... ...

= النعيم المقيم ، فقال : إن من أعظم نعيم الجنة ، ما خلق الله فيها من الحور العين اللّاتى وصفهن بقوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ ﴾ [سورة الرحمن ، الآية ٧٢] .

وقوله : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

[سورة الرحمن ، الآيتان ، ٥٦ ، ٥٧]

فإذا أردت أيها العبد خطبتهن ، فمهورهن الطاعات والتقوى ، فغالٍ فى المهر وأكثر منه ، تظفر بهن ، وتنعم بحسنهن ، ودَلِّهِنَّ ، وما فيهنّ من جمال وكمال .

وكن الكفء المرضى عندهن بهذه الطاعات ، وبتقوى الله تعالى ، وبذلك تسعد فى آخرتك ، وتكون من الناجين ومن أهل النعيم المقيم ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ .

[سورة الرحمن ، الآية ٦٠]

* * *

٢٣ - وَاتْلُ القُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِى حَزَنٍ وَبِصَوْتٍ فِيهِ شَجِى

واتْلُ القُرْآنَ : متَدَبِّرًا بَهُ . « **بقلب** » : أى فؤادٍ .

« **ذِى حَزَنٍ** » بفتْح الحَاء والزّاى ، أى : حزين . وفى نسْخةٍ : « ذِى حرَقٍ » جمع حَرَقةٍ : أى مُحْتَرِقٍ « و » : مُحْسِنًا لَهُ « بصوت فيه شَجٍ » : أى حَزِين ، بمعنى : رَقيق . مِنْ قوْلهمْ : « فلانٌ يقْرَأ بالتّحْزِين [١] » إذَا أرقّ صَوْتَه . وذَلِك لقوْله تعالَى : ﴿ ... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [٢] .

ولخبَر التّرمذِى : « يقولُ اللَّهُ عَزّ وجَلّ : مَنْ شَغَلَهُ القرْآن وذِكرِى عن مسألتى [٣] أعْطَيتُه أفْضَلَ مَا أُعْطِى السّائِلين » [٤] .

وفضْلُ كلَامِ اللَّهِ علَى سائِر الكلامِ ، كفَضْل اللَّهِ علَى جَمِيع خلْقِه .

وخبر أبى دَاودَ وغيْره : « زيِّنُوا القرْآنَ بأصْوَاتِكم » [٥] .

قال الخطَّابِى [٦] : معناه : زيّنُوا أصْوَاتَكُم بالقرْآن . كما فسَّرهُ غيْرُ واحدٍ مِنْ أئِمّة الحدِيث . قال : وقدْ رُوِىَ كذَلِك ، وهو الصحيح .

ومعناه : اشْغَلوا أصْوَاتَكم بِالقرْآن والْهجُوا بِهِ ، واتّخِذُوه شِعارًا وزِينةً . انتهى .

[١] ولأنّ ذلك أقْربُ إلَى توْقِير القرْآن واحْتِرامِهِ بقوْلِهِ : « شَجٍ » وصْفٌ علَى فعِيل ، بمعنى : مفْعول أو فاعِل . فيكونُ مشدَّدًا ، لكنّه خفّفَهُ للوزن ،

---

(١) فى المخطوط : « بالحزَن » . (٢) سورة المزمل ، الآية (٤) .

(٣) فى المخطوط : « من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى ... » الحديث .

(٤) الجامع الصغير (رقم ٢٩٢٦) .

(٥) صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٣٥٨٠ ، ٣٥٨١) عن صحيح أبى داود (رقم ١٣٢٠) .

(٦) هو : أبو سليمان الخطابى ، صاحب كتاب (غريب الحديث) الذى قام بتحقيقه المرحوم عبد الكريم العزباوى ، وطبع فى مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى فى كلية الشريعة - مكة المكرمة .

... ...

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ فعْلًا كعَمِيَ ، أو مصْدَرًا . وعلَى الأوّليْنِ يكونُ صِفةً لصوتٍ . و « فيه » حالًا : أيْ فى : حالِ تلاوَةِ القرْآن . وعلَى الثّالِث : يكونُ علَى يجعل مبتدأ وفيهِ خبَرهُ . أى : فى الصّوْتِ شجَى : أى حُزْن [1] .

وفى البيْت : **التكْميل** : وهوَ أنْ يأْتِى النّاثِر ، والنّاظِم بمعنًى مِنْ مدْحٍ ، أوْ غيْرِه ، ثم يرَى أنَّه غير كافٍ فيأتِى بمعنًى آخر ، فيزيدُه تكْمِيلًا (*) .

* * *

(١ - ١) ما بين الرقمين : « ولأن ذلك ... أى حزن » ساقط من المخطوط .

فضل تلاوة القرآن (*)

من أجلّ الطاعات ، وصالح الأعمال التى لها ذلك الجزاء الموفور : تلاوة القرآن .

ومن آداب تلاوته : أن تكون مفسَّرة حرفًا حرفًا ، مرتلة ترتيلًا بخشوع ، وتدبر ، وتفهم ، وحضور قلب ، ورهبة ، مجوّدة ، محسنة ، بصوت فيه ترقيق كصوت الحزين :

﴿ ... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [سورة المزمل ، الآية ٤] .

وفى الحديث : « نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن » . انظر : « كنز العمال » (٤١٥/٨) .

وفى الحديث أيضًا : « زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا » أخرجه أبو داود (١٤٦٨) ، وفيه : « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » أخرجه البخارى (١٨٨/٩) : أى من لم يحسِّنْ الصوتَ به بشرط ألا يخرج عن حدود التلاوة المأثورة .

* * *

والذى يقرؤه ويتعْتعُ فيه وهو عليه شاق : له أجران . وكل مؤدب يحب أن تؤتى مأدبته ، ومأدبة الله : القرآن ، فلا تهجروه ، وأفضل عبادة أمتى : تلاوة القرآن ، وهى جلاء القلوب ، وشفاء الصدور ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، من عَلِمه سبَق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به هُدِىَ إلى صراط مستقيم .

* * *

٢٤ - وَصَلاَةُ اللّيْلِ مَسَافَتُهَا فاذْهَبْ فِيهَا بالْفَهْمِ وَجِى

« **وصَلاَةُ** » ، وفى نسخة « **وقيامُ اللّيْلِ** » : نافِلتُه ، وهِىَ أفْضَلُ من نافِلةِ النّهارِ . « **مَسَافَتُهَا** » : أى مسافةُ التّلاوة فِيهَا . « **فاذهَبْ فِيهَا بالفَهْمِ** » : أى العلْم . « **وَجِى** » قال تعالى : ﴿ ... مِّن أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (١) .

وروى الطبرانىّ وغيرُه خبر : « شَرَفُ المؤْمِن قِيَامُهُ اللّيلَ » (٢) .

ويكرَهُ قيامُ كلّ اللّيْل دَائِمًا ، وأنْ يَضرَّ فيهِ نفْسَه .

والناظم شبّه الصّلاةَ بالمسَافَةِ ؛ لأنّها محلٌّ لكثْرَة التّلاوَةِ ، كمَا أنّ المسافَة محلٌّ لكثْرةِ السّيْر : أى صلاةُ اللّيْلِ محلٌّ لإكْثارِ التّلاوَةِ ، فاخْصُص التّلاوَةَ فِيهَا بمزيدِ حضُورٍ وتأمّلٍ ؛ ليَتمَّ لكَ لذّةَ المناجَاة ، ويفيضَ عليْكَ المعارِف (*) .

وفى البيت : **الطباق** ، **والإرصاد** ، **والتتميم** ، **والإيغال** .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١١٣) .

(٢) ذكره صاحب صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٣٧١٠) وقال : حسن .
وروايته : « شرف المؤمن صلاته بالليل . وعزه استغناؤه عما فى أيدى الناس » .

قيام الليل (*)

من أجلّ الأعمال الصالحة : نافلة الليل ، ففى الحديث : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومَقْرَبةٌ لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد ، ومنهاة عن الإثم » . [رواه الترمذى] ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [سورة الإسراء ، الآية ٧٩] .

ونافلة الليل عظيم فضلها ، جليل قدرها ، مطلوب فيها الإكثار من التلاوة ، وقد صلى عليه الصلاة والسلام فيها بطوال السور من القرآن الكريم ، فأكثر فيها التلاوة ، وخصها بمزيد حضور وتفهّم وتدبر ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [سورة المزمل ، الآيات ٢ - ٤] لتنفرج عنك الغموم والهموم وتفيض عليك العلوم والمعارف ، وتفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

* * *

٢٥ - وَتَأَمَّلْهَا وَمَعَانِيهَا تأْتِ الْفِرْدَوْسَ وَتَنْفَرِجِ

« **وتأمَّلْها** » : أىْ صلَاة اللّيْل « و » : تأمّلْ « مَعَانِيها » : أى مقَاصِدَها الدّينيّة ، والدُّنْيَوية ، الوَارِدَةِ فى الأخْبارِ . كخبر : « عليْكُمْ بقيامِ اللّيلِ ، فإنّه دَأْبُ الصّالِحِينَ قَبْلَكُم ، ومَقْربةٌ لَكُم إلَى ربِّكُمْ ، ومَكْفَرةٌ للسيِّئاتِ ، ومطردَةٌ للدّاءِ عَنِ الجَسَد ، ومَنْهَاةٌ عَنِ الإثْم » رواهُ التّرْمذِى [١] ، وغيرُه . « تَأْتِ الفِرْدَوْسَ » : فهوَ حدِيقَةٌ أعْلَى الجنّة ، وأوْسَطُها . لخبر البخارى « إذَا [٢] سألْتُموا اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فإنّه أوْسطُ الجنّةِ ، وأعْلى الجنَّةِ ، وفَوْقَهُ عرْشُ الرّحْمنِ ، ومنْه تَفْجرُ أنْهارُ الجنّة » [٣] .

« **وتنْفَرِجِ** » : مِنَ الهمِّ والغَمّ .

ويجوز أن يكُونَ ذَلِكَ مجَازًا عَنْ كمالَ لَذّةِ المعْرِفَة الرّاسِخَة الحَاصِلَة مِنَ التأمّل .

والمعنى : إذا كَرّرْتَ التأمُّلَ فى الصّلَاةِ ، كثُرَتْ معَارِفُكَ ، وأنْوَارُكَ اللدنيَّةِ الشّبِيهةِ فى كمالِها ، ورُسُوخِها بالفرْدَوْس ، أوْ الموصِّلة إليْه .

ويجوزُ عوْدُ الضّمير إلى [٤] الآياتِ المتْلوَّةِ المفْهُومَةِ مِمّا مرَّ .

والفعْلُ المُضَارع إذا وقعَ بعدَ أمْرٍ وقُصِدَ به السّبَبِيّة يجْزِم كمَا فى البيْت .. بخلافِ ما إذَا لم يُقْصد به السّببيّةِ ، فإنّه يُرْفَعُ سَواءٌ وقَعَ صِفَةً كقوْلِهِ تعالى : ﴿ ... فَهَبْ لِى مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [٥]

---

(١) فى الجامع الصغير (رقم ٣٥٤٩) .

(٢) فى المطبوع : « فإذا » وفى المخطوط مع سائر المصادر : « إذا » .

(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى (١٩/٤) .
وصحيح الجامع الصغير وزياداته رقم (٥٩٢) ، وفيه : « فإنه سرّ الجنة » .

(٤) فى المطبوع : « عود الضميرين إلّا الآيات » بدل : « عوض الضمير إلى الآيات » .

(٥) سورة مريم ، الآيتان (٥ ، ٦) .

... ...

علَى قَراءَةِ الرّفْع : حَالًا . أمْ اسْتِئْنَافًا كقوْله تعالَى : ﴿ ... ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [1] ، فإنه يَحْتَمِلُ الوجْهَيْن ، ويحْتَمِلُ الأوْجُهَ كلَّها قوْلُه تعالى : ﴿ ... فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا ... ﴾ [2] . وقد قُرِئَ : « لَا تَخَفْ » .

وفى البيت : **التّشْمِيم والإيغال** :

* * *

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٩١) .

(٢) سورة طه ، الآية (٧٧) .

٢٦ - وَاشْرَبْ تَسْنِيمَ مُفَجَّرِهَا لا مُمْتَزِجًا وَبِمُمْتَزِجِ

« **واشْرَبْ** » بطَاعتِك « **تَسْنِيمَ مُفجَّرهَا** » بفتْح الجِيم المشّدَّدَةِ ، أى : مفجِّر الفرْدَوسِ ، وهو الماءُ المجْرِى . مِنْ فجّرْتُ الماءَ : أجْرَيْتُه .

و « **التّسْنِيم** » : عيْنٌ فى الجنّة يشْرَبُ مِنْها المقرّبُون . مِنْ سَنِمْتُ الشّىءَ : رفعته . سُمِّيتْ بِه لأنّ شرَابهَا أرْفَعُ شَرابٍ فى الجنّة ، أوْ لأنّها تَأتِيهِم منْ فوْق . على ما رُوِى : أنّها تجْرِى فى الْهوَاء مُتَسَنّمةً ، فتنْصَبُّ فِى أوَانِيهم فيشْربُونَ مِنْها ما يُرِيدونَه حالَةَ كوْنِهِ .

« **لا مُمْتَزِجًا** » : أىْ مخْتَلِطًا بغيْرِها ، وهَذا للمقَرّبين .

« **وبِمُمْتَزِجٍ** » : بغيْرِه وهُوَ للأبْرارِ . قال تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ : أى الأبْرار . ﴿ مِن رَّحِيقٍ ... ﴾ [١] أىْ : خَمْرَةٍ خَالِصَة مِنَ الدّنَس ، ثم قال : ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أى : ما يمْزَجُ به ﴿ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [٢] : أى منها . أو ضَمّنَ يشْرَبُ مَعْنَى يَلْتَذّ .. وفسَّرَ فى الآية (التّسْنِيم) بقوْلِهِ : ﴿ عَيْنًا ﴾ إلى آخِرِه ونصَبَه (بأعْنى) مُقدِّرًا ، أو بالحالِيةِ من (تسْنِيم) .

وحاصِلُه : أنّكَ تجْمَعُ اللّذَّتَيْنِ العجِيبَتيْن : لذّةُ « التّسْنِيم » الصِّرف ، ولذَّة « التّسْنِيم » الممْتَزِج .

والكلامُ علَى ظاهِرِه ، ويَحْتَمِلُ أنّه شبّهَ ما يظْهَرُ مِنْ معَانِى التّلاوَةِ مِنَ الْمعَارِفِ ، والأنْوارِ بالتّدبّر ، والتّفَهُّمِ فى تَأَثّر النفس به [٣] استحسانًا وكمالًا ، بالماء المذْكور خَالِصًا ومُمْتَزِجًا ، وأمَرَ بقَبُولِ تلْكَ المعَارِفِ والأنْوارِ بقوْله :

---

(١) سورة المطففين ، الآية (٢٥) .

(٢) سورة المطففين ، الآيتان (٢٧ ، ٢٨) .

(٣) فى المطبوع : « به » ساقطة .

... ...

« واشْرَبْ » (*) أى : تلَقّ بالقَبُول فهوَ : **استعارة ، أو كناية** ، أو « اشْرَبْ » أمْرٌ باقٍ علَى معْناهُ كما تقرّر ، فيُعْطف على جواب الأمْرِ السّابِقِ .

وفى البيت : **الطباق ، ورد العجز على الصدر ، والجناس التام** : فى « لَا مُمْتزجًا » ، « وبمُمْتَزِج » (*) .

* * *

الجزاء على الطاعة (*)

ومن تمام ذلك النعيم جزاء على تلك الطاعات التمتع فى الجنة بشرب التسنيم المفجر من الفردوس وهو أرفع شراب فى الجنة ، يشربه الأبرار ممتزجًا بغيره ، ويشربه المقربون صرفًا غير ممتزج ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [سورة الإنسان ، الآية ٢٢] .

٢٧ – مُدِحَ العَقْلُ الآتِيهِ هُدًى وَهَوًى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِى

« **مُدِحَ العقْلُ الآتِيهِ** » : أى الّذِى أتى مَا مرَّ من الطّاعَةِ وغيْرهَا مِنَ المقَامَاتِ وجعلها [١] مَعْرِفَةَ اللَّهِ الّتى بهَا سَعادَةُ الدّارَيْن ، والتَّهَيُّؤَ لمناجَاتِهِ ، وفهْمَ خِطَابِهِ . « **هُدًى** » : أى دلالَةٌ علَى الطَّرِيقِ ، وهوَ مفْعولٌ لَه : أوْ حَالٌ مِنْ فاعِل « آتِيه » أوْ مِنْ مفْعُولهِ ، أوْ منْهما .

والعقلُ لغةً : المنْع . **واصْطِلَاحًا يقال** : بالاشْتِرَاكِ كما قالَ الغزَالِىّ [٢] لأربعة معانٍ :

أحدُها ــ غرِيزَةٌ يتهيّأُ بِهَا لدرْكِ العُلُومِ النّظرِيّة ، قال : وكأنّه نورٌ يُقْذَفُ فى القلْبِ ، بهِ يسْتَعِدّ لإدْرَاكِ الأشياء .

ثانيها ــ بعضُ العلُومِ الضّرورِيّةِ .

ثالثها ــ علومٌ تُسْتَفَادُ من التَّجارُبِ بمجَارِى الأحْوالِ .

رابعها ــ انتهَاءُ قوّةِ تِلْكَ الغرِيزَة إلَى أنْ تعرفَ عَواقِبَ الأمورِ ، وتقْمَعَ الشّهْوةَ الدَّاعِية إلَى اللذّةِ ، العاجِلَة وتقْهَرها .

قال ــ ويشْتَبهُ أنْ يكونَ الاسْمُ لغةً ، واسْتِعمالًا لتلْكَ الغرِيزَة ، وإنَّما أُطْلِق علَى العُلوم مجازًا من حيْثُ إنها ثَمرتُها ، كما يُعرَفُ الشىءُ بثَمَرتِه ، فيقال : العلمُ هو : الخشْيَة .

والرابع ــ هو مُرَادُ النّاظِم .

---

(١) فى المطبوع : « وجلها » بدل : « وجعلها » .

(٢) **الغزالى** : المراد به : أبو حامد . حجة الإسلام (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) وصاحب كتاب « إحياء علوم الدين » . تعرض للفقه ، والكلام ، والتصوف ، والفلسفة . وخلف لنا عدة كتب أشهرها ما ذكرناه ولم يكن فى منهجه إلا الدفاع عن الإسلام بفكر نير ، ومنطق مستقيم .

... ...

وعبّرَ عنْ أوّلها الإمام الرّازى [1] بأنه : غرِيزة يتّبِعُها العلْمُ بالنظريّاتِ عندَ سلَامةِ الآلاتِ .

وعرّفه الشيخُ أبُو إسْحاق الشيرازى بأنه : صِفَةٌ يُميَّز بها بيْنَ الحسَنِ والقَبِيح .

وهو معنى قول الشافعى : إنه آلةُ التّمْيِيز .

وعرّفه أكْثَر الحُكماء بأنه : جوْهَرٌ مجرّدٌ غيْرُ متعَلّق بالبدَن ، تعلّق التدْبيرِ والتصرّفِ .

وبعضهم : بأنه جوْهرٌ مجرَّدٌ عن المادّةِ فى ذاتِهِ مقارِنٌ لهَا فى فِعْلِهِ ، وهو النفْسُ النّاطِقةُ الّتى يشيرُ إليْها كلُّ واحدٍ بقوْله : (أنا) وذلكَ عنْد أكْثَر الحكماءِ ، والمعْتَزِلة [2] ــ ويَخُصّهُم [3] ــ بأنه : جوهَرٌ لطِيفٌ فى البدَنِ ينبَعِثُ شُعاعُه فيهِ كالسِّراج فِى البيْتِ ، ومَحَلُّه الدماغ عند أكثر الحكماء وبعضَ الفقهاء .

والقلبُ عنْدَ أكثرِ الفُقَهاءِ ، وبعْض الحُكماءِ . ونُقِلَ عنِ الشّافِعِىّ ــ وهو الصحيح ــ قال الشارح : وهوَ الّذِى قال يدل عليه نصوص الشريعة ، قال تعالى : ﴿ ... وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ [4] .

---

(١) الإمام الرازى هو : أبو عبد الله . محمد بن عمر . فخر الدين الرازى : أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل . قرشى النسب أصله من طبرستان ، وتوفى بهراة سنة ٦٠٦ هـ .
(طبقات الأطباء ٢٣/٢ ، وإخبار العلماء للقفطى ، وأعلام الزركلى ٣١٢/٦) .

(٢) **المعتزلة** : فرقة كلامية إسلامية ، ظهرت فى أخريات القرن الأول الهجرى وبلغت شأوها فى العصر العباسى .
وقد امتازت هذه الفرقة بحرية الفكر ، والاعتداد بالعقل ، وقوة الحجة .

(٣) فى المطبوع : « وبعضهم » بدل : « ويخصّهم » .

(٤) سورة الحج ، الآية (٤٦) .

... ...

وأمّا فسَادُه لفسَادِ الدِّماغِ فلَا يدُلّ علَى أنّه محَلّه ؛ لجوَازِ أنْ يكونَ سلَامَةُ الدّماغِ شرْطًا فى اتّصافِ القلْبِ به عادةً .

« وهَوًى » مُبْتدأ ، وهو[1] : ميلُ النّفْسِ إلَى الشّهْوَةِ حَلَال أوْ حَرَام .

« **مُتَوَلٍّ** » : أى مُعْرِضٍ . « **عنْه** » : أى عَنْ ما مَرّ من الطّاعةِ وغيْرها من المقَامَاتِ . **عَن الهُدى** : مضَافٌ إلى « متَولٍّ » : أى موْصوفٌ بِهِ .

« **هُجِى** » : خَبَرُ المبْتَدَأ .

أى : ذم من هجوْته هجْوًا أوْ هجَاءً وتَهْجَاء : انْقَلَبَتْ الواوُ ياءً فى المبْنِى للمَفْعُول لِتَطرُّفِها وانْكِسارِ ما قبْلها .

وفى البيت : **التَّتْمِيم** فى « هدًى » ، **والمقابَلَة** وهى : أن تُجْمَع أمورٌ مخْتلِفة ، ثمّ تقابَلُ بضدٍّ كلّ منْهما . كما قابَلَ « المدْحَ » بالذمّ و « الإتْيانَ » « بالتَّوَلّى » و « الهُدَى » بـ « الهَوَى » ، وكما فى قوْله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ... ﴾[2] ، **والطباق**[3] (*) :

* * *

(١) « وهو » : أى (الهوى) .
(٢) سورة التوبة ، الآية (٨٢) .
(٣) فى المخطوط : « والطباق » ساقطة .

مدح العقل وذم الهوى (*)

العقل والهوى ضدّان متنافران :

فالعقل : نور يهدى إلى الخير والصلاح ﴿ ... قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

[سورة الحديد الآية ١٧] =

... ...

= **والهوى** : مضلة يحبب إلى النفوس الشهوات والرذائل ، ويكرّه إليها المراشد والفضائل : ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ [سورة ص ، الآية ٢٦] .

فحكِّم عقلك واستعمله فى كل ما تأتى وما تذر
واطرح هواك فى أى أمرٍ قلّ أو كثر
فما حكَّمَ العقل أحد إلا ظفر
وما حكَّم الهوى أحد إلا خسر

وحسب العقل شرفًا أنه مناط التكليف بالشرائع والأحكام من رب العالمين .

* * *

٢٨ - وَكِتَابُ اللَّـهِ رِيَاضَـتُـهُ لِعقُـول الْـخَلْقِ بِـمُـنْـدَرِجِ

« وَكِتَابُ اللَّهِ » تعالَى « رِيَاضَتُهُ » : أىْ تَعْلِيمُه ، وتأديبُه ، بأمْرِهِ ، ونهْيه ، وَوَعْدِهِ ، وَوَعِيدِه ، ووعْظِه ، وضَرْبَ أمْثَالِه .

« لعقُولِ الخَلْقِ » : **كنايةً** .

« **بمنْدَرِج** » : أى بطريقٍ واضِحَةٍ يندَرِجُ النّاسُ فِيهَا ؛ لِصِحَّتِها ، ووضُوحِها من درَج القوْمُ ، **وانْدَرَجوا** : مَضَوْا فى سَبِيلِهم .

والمراد : بدَلَائِل وضَرب الأمْثالِ ، وآياتٍ واضِحَاتٍ لا قَدْحَ فِيهَا ، ولا فِى مقدِّماتِها ، كالطّرُق المسلوكة ، لأمْنِها واتّضَاحِها .

والرِّياضَـةُ : مِن رُضْتُ الدّابة . أى : علّمْتُها السَّيْرَ ، وإضافَتُها إلَى ضَمِير الكتابِ مِنْ الإسْناد **المجازِىّ** كقوْلهم : طرِيقٌ سَائِرٌ ونهْرُ جَارٍ ؛ لأنّ المعلّم والمؤدِّب حقِيقَةً هو الله ، لكِنْ بألْفاظِ الكِتَاب ، فكأنّها الرَّائِضة [١] لعقولِ الخلْقِ .. فَفِى ذَلك تَشْبِيهُ العقُولِ [٢] بالدّابةِ فى حَاجةِ التَّعلُّم علَى طريقِ **الاسْتعارَة بالكناية** وطوَى ذِكرَ المشبَّه بِهِ واكْتفَى بلازمِهِ وحْدَه [٣] ، وخصّ الكتابَ بِالذّكْرِ لِأنّهُ مرْجِعُ الأدِلّة ، والآية الكُبْرَى ، والنِّعمَةُ العظْمَى ، فى بيَانِ ما لَا تَهْتَدِى إليْهِ العقولُ فى الاعتصام [٤] من الفتَن . لخبَر : « أنّه سيَكونُ فِتَنٌ كقِطَعِ اللّيلِ المظْلِم . قِيلَ : فما النّجاةُ مِنْها يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : كتابُ اللَّهِ فيهِ نبَأ مَنْ قبْلَكُمْ ، وخَبَرُ ما بَعْدَكُم ، وحُكْمُ ما بيْنَكم ، وهوَ فصْلٌ ليْسَ بالهزْلِ ، من تَرَكَهُ تَجبُّرًا قصَمَه الله ، ومَنْ ابتَغَى الهُدَى فى غَيْرِه أضلَّهُ الله ، وهو حَبْلُ اللَّهِ المَتِين ، ونُورُه المُبِين ، والذّكْر الحَكِيم ،

---

(١) فى المخطوط : « الرياضة » بدل : « الرائضة » .

(٢) فى المخطوط : « تشبيه حقيقة هو الله تعالى العقول ... » إلخ .

(٣) فى المخطوط : « وحده » ساقطة .

(٤) فى المطبوع : « فى الاعصام » بدل : « فى الاعتصام » .

... ...

والصِّراطُ المستَقيم ، وهو الّذِى لَا تزيغُ بهِ الأهْواءُ ولَا تتَشعّبُ مَعَهُ الآراءُ ، ولَا تشْبَعُ مِنْهُ العُلماءُ ، ولا تمُلُّه الأتْقِياء ، مَنْ عَلِمَه سَبَقَ ، ومَنْ عَمِلَ بهِ أُجِرْ ، ومَنْ حَكَم بهِ عدَل ، ومَنِ اعْتَصَم بهِ هُدِى إلَى صِراطٍ مستقيم »[1] (*) .

وقوله : « رِياضَتُه » بَدلُ اشْتِمال مِن المبْتَدَأ قبْله ، أو مُبْتدأ[2] ثانٍ خبره « بمنْدَرِج » وهوَ معَ خبرِه ، خبرُ الأوّل ، واللّامُ زائِدَة ؛ لتقْوِيَةِ العامِل لضَعْفِه بالفرْعِيّة[3] ، وتنوين « منْدَرِجٍ » للتكْثِير ، و التّنْوِيع .

---

(١) رواه السيوطى فى (الجامع الكبير ٣٠٤/١ ، ومسند أحمد ٤٩٣/٣) .

رياضة العقول بالقرآن العظيم (*)

تقدم القول فى آخر شرح (البيت ٢٣) فى فضل تلاوة القرآن وآدابها ، وأنها من أفضل الطاعات ، وأعظم العبادات ، ونزيد هنا ترغيبًا فيها ، وحثًّا عليها بيان أثر القرآن العظيم فى تهذيب النفوس وتربيتها ، وتعليمها وإرشادها ، فإن فى آياته البينات ، وأمثاله الحكيمة ، وعظاته البليغة ، ودلائله الواضحة وحججه الدامغة ، وتحذيره من طرق الغواية ، وتصريف آياته بأساليب محْكَمَة : أمر ، ونهى ، وخبر ، واستخبار ، وقصص ، وعبر ، ووعد ، ووعيد ، وترغيب ، وترهيب ، تعليمًا وتهذيبًا ، ورياضة للنفوس وتنبيهًا ، وعصمة من الشر لمن تأمله وتدبره :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾ [سورة الإسراء ، الآية ٩] .

وقد تعبّدنا اللّهُ بالقرآن الكريم وأوجب علينا اتباعه والعمل بما جاء فى كل شأن من شئون الحياة : فى العبادات ، والمعاملات ، والأحكام ، والأخلاق ، وسياسة الرعية ، ورعاية المصالح ، فى الدين والدنيا ، فى الحرب والسلم ، فى علاقات الأفراد والجماعات ، بعضهم مع بعض ، وفى علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم ، فى تحديد الحقوق والواجبات وغير ذلك .. وحذّرنا أشد التحذير من مخالفته وعصيانه بما ضرب من الأمثال وأخبار الأمم الماضية الذين ضلوا سبيل الله فكانوا من الهالكين .

فكتاب ربنا هو الدستور الأعظم ، والإمام المقتدَى ، والحجة والبرهان ، وهو الحق المبين ، والصراط المستقيم ، فمن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله .

اللهم أرنا الحق حقًّا فنتبعه ، وأرنا الباطل باطلًا فنجتنبه .

(٢) فى المطبوع : « أو مُبتدًا » بدل : « أو مبتدأ » .

(٣) فى المطبوع : « يضعفه يا الفرعية » بدل : « لضعفه بالفرعية » .

* * *

« وخِيَارُ الخَلْقِ » ، وفى نسخة : « النَّاس » : أى أفْضَلُهم .

« هُدَاتُهُمُ » إلى طريقِ الحقّ . وهم : العُلمَاءُ العامِلُون . يقالُ : هدَيْتُه الطّريقَ ، وللطَّرِيقِ ، وإلَى الطّرِيق : أى دَلَلْتُه عليْه . ويَدلُّ لِما قالَه أدِلّةٌ كَثِيرةٌ كقوْلِهِ تعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ... ﴾[1] فبدَأَ بنَفْسِه ، وثَنّى بملائِكتِهِ ، وثلّثَ بأولِى العِلْمِ دُونَ غيْرهم ، ونَاهِيكَ بهِ شرَفًا .

وقوله : ﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... ﴾[2] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : « لهُمْ دَرَجَاتٌ فوْقَ المؤْمِنين بسبع مئة دَرَجةٍ ، ما بَيْنَ الدّرَجَتَيْنِ مسيرة خمس مئة عام » .

وقوْلُه : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾[3] . فحصَرَ خشْيَتَهُ فِيهِمْ ، وأعْظِمْ بِهِ شرَفًا ؛ لأنّ معْرِفَتهُ سَبَبُ خشْيَتِه .

وقوْلُهُ صلَّى اللَّهُ عليْه وسلّم : « مَنْ سلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِى فيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طرِيقًا إلَى الجَنّةِ ، وإنّ الملَائِكَةَ لتَضَعُ أجْنِحتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رضًا بمَا يصْنَع ، وإنّ العَالِم ليسْتَغْفِر لَهُ مَنْ فِى السّمَواتِ ومَنْ فِى الأرْضِ حتّى الحِيتَان فِى الماء [وإن][4] فَضْل العَالِم علَى العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ علَى سائِرِ الْكَوَاكِب . وفى رواية : (كفضْلِى علَى أدْنَاكُم) ، وإنّ العلمَاءَ ورَثَةُ الأنْبِياء [وإن الأنبياء][5] لمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولَا دَرْهِمًا ، إنَّمَا ورّثُوا العِلْم ،

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٨) . (٢) سورة المجادلة ، الآية (١١) .
(٣) سورة فاطر ، الآية (٢٨) .
(٤) ما بين المعقوفتين عن صحيح الجامع الصغير وزياداته .
(٥) ما بين المعقوفتين عن صحيح الجامع الصغير وزياداته .

... ...

فمَنْ أَخذَهُ فقدْ أَخذَ بحظٍّ وَافِر »[1] رواهُ أبو دَاوُد والتّرمذى ، وغيرهما .

« **وسِوَاهُم مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ** » « خيْرُ النّاسِ رجُلانِ : عالِمٌ ، ومتعلِّم ، وسائِرُ النّاسِ هَمَجٌ لا خيْر فِيهم »[2] رواه ابنُ ماجه بلفْظ : « العالمُ والمتعلِّم شَرِيكَانِ فى الْخَيْر ولا خَيْرَ فى سائِرِ النّاسِ »[3] .

و « الهمَج » جمْع : همْجَة وهِىَ : الشّاةُ المَهْزُولَة ، والذّبابُ الصّغِير الّذِى يَسْقُطُ علَى وجوهُ الغَنَم والحَمِير .

شبّهَ بذَلِك غيْرَ الهُداةِ فى قِلّةِ الهِمّةِ وخِسّةِ القُلوبِ ، ثمّ بالغَ بأنْ جعَلَهم من هِمَجِ الْهَمج .. علَى طريقِ التّجرِيد التّشْبِيهى ، الّذِى هوَ أبْلَغ أنْواعِ التّجْرِيد .. تنْبِيهًا على ذَمّ العِلْم الّذِى لا ينْفَعُ صَاحِبَه عنْدَ اللّهِ بأنْ قصَدَ بِهِ حَظًّا أو جاهًا دنْيويًّا فيأثم ، بخبر : « أَشَدّ النّاسِ عَذَابًا يوْمَ القِيَامَةِ : عالِمٌ لمْ ينفَعْهُ عِلْمُه »[4] رواه الطبرانىّ ، والبيْهقى .

وخبر : « لا يَكونُ المرْءُ عالِمًا حتّى يكونَ بِعلْمِهِ عَامِلًا »[5] رواه ابن حِبّان والبَيْهقى ، موقوفًا علَى أبى الدّرْداء .

وفى البيت : **الجناس ، ورد العجُز علَى الصّدْر ، والمقابَلة** : وهِىَ أَن يؤْتَى بمعنَيينِ مُتَوَافِقَين أوْ أكْثَر ، ثم بما يُقابِل ذَلِكَ علَى التّرتِيب . كمَا قابَلَ « خِيَار الخلْق » بـ « سوَاهُم » و « هُدَاتُهم » بـ « هَمَجِ الْهَمَجِ » فكمَا فى قوْله تعَالَى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ... ﴾[6] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته (رقم ٦٢٩٧) وقال : (صحيح) عن مسند أحمد وسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وصحيح ابن حبان .

(٢) سنن الدارمى . المقدمة ٣٢ (٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٨) .

(٤) رواه الطبرانى فى (الصغير ١٨٣/١) .

(٥) (كنز العمال فى سنن الأقوال . للمتقى الهندى ٣٠٥/١٠) ، وعزاه لابن عساكر .

(٦) سورة التوبة ، الآية (٨٢) .

... ...

والتّجريد : وهو أن ينْتَزِع مِنْ متَّصِفٍ بصِفَةٍ آخَر مِثْلَه فِيها ؛ لأجْلِ[1] المبالَغَةِ فى كمالِهَا فيهِ .. مثالُه فى التّشْبِيه : لَئِنْ لَقِيتُ زيْدًا لتلْقَيَنّ مِنْهُ بحْرًا ، أو لتَلْقَيَنّ[2] بهِ أسَدًا . يَعْنُونَ : نفْسَ زَيدٍ .

والنـاظِم جرّدَ غيْرَ الهُداةِ مِنْ « هَمَجِ الهمَجِ » بعـدَ التّشْبِيهِ مبـالَغَةً فى الذمّ .

ولمّـا أشارَ[3] إلى عِظَم خطَر الْعِلْم والْعمَلِ فيمَنْ قصَد منْها قصْدًا مذْمُومًا ، أشار[3] إلى الأمرِ بالجِدّ فِيهِمَا والصّبْر عليْهِما ؛ ليسْلَم الآنىّ بِهمَا مِنَ الخطَرِ[*] . فقالَ :

---

(١) فى المطبوع : « لاجلى » بدل : « لأجل » تحريف .

(٢) فى المطبوع : « ولتلقين » بدل : « أو لتلقين » . (٣) فى المطبوع : « أشاره » بدل : « أشار » .

فضـل العـلم والعلماء العاملين[*]

أفضل الناس هم العلماء العاملون ، الذين يهدون الناس إلى طريق الحق والفلاح ، ويرشدونهم إلى سبيل الهدى والصلاح ، ويزودون عن بيضة الإسلام بالحجة والبرهان ؛ قطعًا للشكوك والأوهام .

وهؤلاء هم حراس الشريعة وأمناؤها . ومنهم المجددون على رءوس المئين من السنين .

وهم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ [سورة فاطر ، الآية ٢٨] ، وقوله : ﴿ ... هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾ [سورة الزمر ، الآية ٩] وغير هؤلاء همَجٌ من الخلق لا خير فيهم ، لا لأنفسهم ، ولا للناس .

ومنهم الجهال الذين عموا وصموا فلم يعرفوا حقًّا ولا معروفًا ، فكانوا بالأنعام أشبه .

ومنهم الذين اتسموا بسمة العلماء ، ولكنهم عن العمل بالعلم معرضون ، وبإضلال العامة مفتونون ، طمعًا فى عَرَض زائل ، أو جاهٍ زائف ، أو شهوة كاذبة .

ومنهم الذين مارسوا قليلًا من العلم فلم يستوعبوه نظرًا ، ولم يتعمقوا فيه بحثًا ، فلم يحصلوا منه على كبير طائل ، وكبُرَ عليهم أن يُعْرفوا بالتصدّر ، فإذا سئلوا ولم يعلموا أفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا ، وقالوا على الله ما لا يعلمون .

وكل هؤلاء على خطر عظيم ، وهم المعنيون بالذم فهم « همج الهمج » .

* * *

« **وإذَا كُنْتَ المِقْدَامُ** » : أى الْكثيرُ الإقْدَامِ علَى العدُوّ ؛ لشجَاعَتِكَ ، و « أَلْ » فيهِ للعَهْدِ العِلْمِى ، علَى سَبِيلِ الادّعاء : أى الْكامِل فى الإقْدام ، أوْ للاسْتِغْراقِ المجَازِى ، الجامع لخَصائِص جنْس المقْدَام ، كما فى قوْلِكَ : أنْتَ الرّجُلُ عِلْمًا « **فلَا تَجْزَعْ** » : أى تَضْطَرِب ، وفى نسْخَةٍ : « فلَا تَلْوِى » : أى تَعْرِضْ « **فى الحَرْبِ** » : أى القِتَال « **من** » : أجْلِ . « **الرَّهَجِ** » : أى الغُبار .

أى : كُنْ فى جِدّكَ ، وَنشَاطِكَ قوىَّ القلْبِ باللَّهِ ، نافِذَ العزْمِ فيما تطْلُب .. كالمِقْدامِ الّذِى لا يُردُّه عَنْ مقْصِدِه رَادٌّ ، وإنْ عَظُم ، وإذَا كنْتَ كذَلِك فلا تجْزَعْ فى مجَاهدَتِك الشّيْطانَ والنّفْسَ ، ومخَالفَتِهمَا الشّبيهَة بالحرْب مِنَ العَوارِضِ الشّبِيهَةِ بالرّهَج فى الدّناءَةِ .. كوَسْوَسَةِ الشيْطَان ، وهَوَى النفْسِ ؛ لأنّهمَا يقولَانِ لكَ : إنْ كنْتَ خُلِقْتَ سعيدًا لمْ يضرّكَ ترْكُ العِلْم والعمَلِ !! أوْ شَقِيًّا لمْ ينْفَعَاكَ !!

وادْفَع هذِهِ الشّبْهة بأنْ تقول : إنّما أنَا عبْدُ اللَّهِ ، وعلَى العبْدِ الامْتِثالَ لعبُوديّتِهِ ، والرَّبُّ يحْكُم ما يشاءُ ، ويفْعَلُ ما يُريد . ولأنّ العِلْمَ والعملَ ينفَعَانِى كيْفَ مَا كنْتُ ؛ لأنِّى إنْ كنْتُ سَعِيدًا ازْدَدتُ بهمَا ثوَابًا ، أوْ شقيًّا فلَا أَلُومُ نفْسِى ، ولأنّ اللَّهَ لا يُعاقِبُنى علَى الطّاعةِ بكلِّ حَالٍ ، ولَا تضرُّنِى علَى أنِّى إنْ دخلْتُ النّارَ وأنَا مُطِيعٌ ، أحبُّ إلَىَّ مِنْ أنْ أدْخُلَها وأنَا عاصٍ ، فكيفَ وَوَعْدُه حَقٌّ ، وقوْلُهُ صِدْقٌ .. وقدْ وعَدَ علَى الطّاعةِ بالثّوابِ .

وبما تقرّرَ ظهرَ لكَ : أنّ « الحرْبَ » مُسْتعارَة ؛ لمجاهدَةِ الشّيْطانِ والنّفْس ، بجامِعِ المشقَّةِ ، وأنّ « الرّهَجَ » مُسْتعارٌ للخوَاطِرِ الوَارِدَةِ علَى القَلْبِ مِنْهمَا ، بجامِعِ الدّناءَةِ وهذه الاسْتعارة مرشَّحة للأولى ، لأنّ « الرّهَج » منْ

... ...

لوازِم المُسْتَعارِ مِنْه وهـوَ القِتَال ، فتشبيه المجاهدة بالحرب **استعارة تصْرِيحيّة**[1] ، وإثبات الرهج لها ترشيح .

وفى البيت : **الإيغال**[*] .

* * *

(١) فى المخطوط : « استعارة بالكناية » بدل : « استعارة تصريحية » .

الجدّ فى العلم والعمل ، والصبر عليهما[*]

يقول : إذا جاهدت نفسك والشيطان وكنت المقدام فى الحرب والطعان ، فتدَرّع بالصبر والثبات ، ولا تجزَع بما ينفُثانه من الوساوس ، ويدبرانه من الدسائس ؛ ليصدَّاك عما أنت بسبيله من الجدّ فى العلم النافع ، والمثابرة على العمل الصالح ؛ ابتغاء رضوان الله ، والطمع فيما عنده من المثوبة ، فإنّ كل ذلك لا يلبث أن تذروه الرياح ، ويتطاير كالشرر والهباء ، إذا ما وثقت بالله ، واستعنت به وصبرت فى حَلْبة الجهاد ، والله ولىّ المؤمنين ، ونصير المجاهدين .

* * *

٣١ - وَإِذَا أَبْصَرْتَ مَنَارَ هُدًى فاظْهَرْ فَرْدًا فَوْقَ الثَّبَجِ

« **وإذَا أبْصَرْتَ** » : بعْدَ جَدّكَ فى العِلْمِ والْعَمَلِ ، وإعْرَاضِكَ عنِ الْعوارِضِ الدّنِيئَةِ . « **منَارَ هُدًى** » : أى الطّرِيقَ المسْتَقِيمَ .

« **فاظْهَرْ فرْدًا** » : أى فَاعْلُ منْفَرِدًا .

« **فوْقَ الثّبَجِ** » : بفتْحِ البَاء ، أى : الوَسَط ، أو المعْظَم . مِنْ منَارِ الهُدَى لتَصِيرَ من المخْتصِّينَ بِهِ ، المتمَكِّنِينَ مِنْه . و « المنار » : مفْعَل مِنَ النُّورِ ، وهوَ ما يَحُلُّ فِيهِ النّورُ وهوَ أيْضًا : العَلَم . الَّذى يُنْصَبُ فى الطّرِيقِ للاهْتِداءِ بِه ، **واستعار** الإبْصَارَ ، وهو رُؤْيةُ العيْنِ لِلعَلَم لأنَّ المحْسوسَ أجْلَى مِنَ المعْقُولِ ، فشبّهَهُ بِهِ فى الجَلاَءِ ، واسْتَعارَ بعْد تشْبِيهِ الهُدَى بالمَنَارِ والنّور ، للدّلِيل الوَاضِح المُفِيدِ للعِلْم والعمَل ، أوْ للشيْخِ المفيدِ لِذلِك ، فقدْ قالُوا : « مَنْ لمْ يَكُنْ لَهُ شيْخٌ فالشّيْطَانُ شيْخُه » .

وقالَ الشيخُ أبو مدْيَن [١] : « مَنْ لَمْ يأخذْ أدَبَه مِنَ المتَأدِّبِين ، أفْسدَ مَنْ يتبعُه [٢] » .

وقال أيْضًا الشيخُ : « مَنْ هذّبَكَ بأَخْلاقِهِ ، وأدّبَكَ بإطْرَاقِه ، أنارَ باطِنَك [٣] بإشْراقِهِ » فتشْبِيهُه الهُدَى بالنّور : **استعارة بالْكِنَاية** . وإثْباتُ المنارِ لَهُ : **اسْتِعارةٌ تخْيِيليّة** . واسْتعارَ « الثّبَجَ » لأقْوَى وأشْرَف أدِلّة العِلْم وأسْبَابِ العمَلِ ؛ لأنّ وسْطَ كلّ شيْءٍ : خِيارُه ، ومعْظَمُه : أقواه ، و « ألْ » فيه

(١) الشيخ أبو مدين المغربى . من أعيان مشايخ المغرب وصدور المربين . واسمه شعيب ، وولده مدين مدفون فى مصر .
(طبقات الشعرانى رقم ٢٧٥) .

(٢) فى المطبوع : « من ينفعه » بدل : « من يتبعه » .

(٣) فى المطبوع : « وأنار باطنك » بدل : « أنار باطنك » بزيادة « و » .

... ...

لتعْريف العهْد الخارِجيّ ؛ لتقدّم ما يستَلزِمُ مصْحوبَها ، وهو « منَار هدًى »(*) .

وفى البيت : **التَّـتْميم** فى « فردًا » و « الاتساع »(١) :

الحث على طلب أعلى الدرجات(*)

سبق القول فى شرح البيت (رقم ١٥) : أن طلب العبد الانتقال مما أقامه الله فيه ، إلى ما هو أعلى درجة ، لا خطر فيه ، إذا تجرّد من رعونة النفس وحظوظها وشهواتها ، وأخلص النية فيه لله وحده ، وقصد الفوز بقربه ، ورضاه تعالى .

وإنك بعد الجدّ فى العلم والمثابرة على العمل فاعمد إلى تسَنُّم ذرْوَته ، لتتمكن منه ، وتكون من المختصين به ، ولا تقف همتك دون ذلك فإنه قصور أو تقصير ، وكلاهما معيب .

والله الموفق لمعالى الأمور .

* * *

(١) فى المخطوط : « التتميم فى فرد الاتباع » .

٣٢ - وَإِذَا اشْتَاقَتْ نَفْسٌ وَجَدَتْ أَلَمًا بالشَّوْقِ المُعْتَلِجِ

« **وإذَا اشْتَاقَتْ نفْسٌ** » : أى مالَتْ إلَى مطْلُوبِها ، ميْلًا تحْرِقُ بهِ الأحْشاء ، بحيْثُ لا يسْكُنُ باللِّقاء .

والتنْوين : للتّكْثِير ، والتّنْويع : أى نفُوسٌ كثِيرَةٌ صادِقَةٌ فى المحبّة ، راسِخَةٌ فى الْمعْرِفَة .

« **وجَدَتْ أَلَـمًا** » : تنوينه للتّكْثِيرِ ، والتّنْويعِ أيْضًا . « **بالشّوْقِ** » : أىْ شوْقها .

« **المعْتَلِجِ** » : أى الشّدِيد . و « أل » فى « الشوق » لتعريفِ العهْد الخَارِجِىّ ؛ لتقدُّمِ ما يسْتَلْزِم مصْحوبَها .

والاشْتِيَاق : أعلَى مِنَ الشّوْق ؛ لأنّه لا يسْكُنُ باللِّقَاء كما مَرّ .. بخِلَافِ الشَّوْق . قال ابنُ عطاء اللَّهِ : « والمحبّةُ أعْلى مِنَ الشّوْقِ أيْضًا [1] ؛ لأنّه ينْشَأ عنْها ، ويؤْخَذُ منْه أنّها أعْلى مِنَ الاشْتِياقِ أيْضًا . وفى كلٍّ منْهمَا وقْفَة .

والوجْهُ : حمْلُه علَى الطّالِب لِذلِك .. فإذا قصَدَ الشوْقَ ، فتَحْصِيلُ المحبَّةِ أعْلى منه فى حقّه ؛ لأنّ الثّمرةَ إنّما تَكُونُ عَنْ مُثْمِرٍ ، والاعْتناءُ بالمثْمِر قبْلَ الثّمَرةِ أوْلى . أمّا بعْدَ [2] حُصُولِهما ، فظَاهِرٌ أنّ الشّوْقَ أعْلَى : كمعْرِفةِ اللَّهِ تَعالَى معَ النّظَر المُحَصِّل لها .. والمحبّةُ تنْشأُ عَنْ قوّةِ العِلْم بالمحْبُوبِ ، فمَنْ قَوِىَ عِلْمُهُ باللَّهِ ، كانَت مَحبّتُه لَه أكْثَر ، ومَنْ عرَفَ فضْلَ العِلْمِ والعمَلِ أحبَّهُما .. وهىَ لكوْنهَا ميْلُ القلْبِ إلَى الشّىْءِ يسْتَحِيلُ فى حقِّ اللَّهِ تعالَى بِهذَا المعْنى .

فالمراد : لازِمُه . فمحبّتُه تعالَى لعبْدِه ؛ عصْمَتُه لَهُ ، وتوْفِيقُه لِلقُرْبِ مِنْه ، وثَناؤُهُ عليْه بما يرْقِيه ، وتفَضُّلُه عليْهِ بما يُرْقيه [3] .

---

(١) فى المخطوط : « أيضًا » ساقطة . (٢) فى المطبوع : « ما بعد » بدل : « أما بعد » .
(٣) فى المطبوع : « « بما يرضيه » بدل : « بما يرقيه » تحريف .

... ...

وغايَتُها : كشْفُ الحُجُبِ عَنْ قلْبِه حتَّى يَراهُ بهِ ، فيكونُ إذْ ذَاكَ مِنْ أجلّ الوَاصِلِين المقرّبين ، كما نَبّه عليْه صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلّم ، فيمَا حَكَاه عنْ رَبِّهِ من قوْلِهِ : « فإذَا أحْبَبْتُه كُنْتُ سمْعَه الّذِى يسْمَعُ بِهِ ، وبصَرَه الّذِى يُبْصِرُ بهِ ... » الحديث (١) .

وسببُ ذَلِك : التجرّدُ للَّهِ ، والانْقِطاعُ إليْه ، والإعْراضُ عَنْ غيْرِه ، بصفَاءِ القلْبِ ، وإصْلَاحِ الحرَكَاتِ ، والسّكنَاتِ .

ولا رَيْبَ أنّ هذِه مرْتبَةٌ ينْشأُ عنْها الشّوْقُ إلَى لِقائِه وحبّ الموْتِ .

« **وَجَدَتْ** » : مأخُوذٌ مِنْ وجدَ مطْلوبَهُ وُجُودًا : ظَفرَ بِهِ بعْدَ أنْ لَمْ يَكُن ظَافِرًا .

أو مِن وجَدَ ضالّتَه وِجْدانًا . بكسْرِ الوَاوِ : ظَفرَ بهَا بعد ذهابِها عنْه .

أوْ مِنْ وجَدَ وجْدًا : حزن . أىْ حَزِنْتَ مِنْ أَلَمِ الشّوْق .. والأوّل هو المُتَبادر (*) .

---

(١) نص الحديث : « إن الله عز وجل قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبد مؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

(صحيح البخارى رقم ٦٥٠٢) .

لـذّةُ الاشـتياق وألمـه (*)

وإذا تسنّمت منار الهدى ، وتمكنت منه ، حتى سطعت فى قلبك أنوار العلم والعرفان . فأنعم قلبك بمحبة الله ، والاشتياق إلى لقائه تعالى .

وفى هذا الاشتياق لذة قوية ، وألم شديد : =

... ...

وفى البيْت : **التَّشْمِيم ، والإيغال ، والاتساع ، والتّعطّف ، وشبه الجناس .**

* * *

= **أما لذته** : فمن حيث دوام ذكر المحبوب ، ومحبته ، والهيام به ، والأنس بذكره .

أما ألمه : فمن حيث كونه نارًا تضطرم فى الأحشاء ، دائمة الاشتعال . لا تخبو ولا تطفأ باللقاء ، بل يزيدها اللقاء ضرامًا ، كما يزيدها الحرمان منه احتراقًا ، فتبقى النفس فى الحالين فى ألم شديد . وأحبب بهذا الألم فى سبيل المقصد الأسنى والمطلب الأعلى .

وللعارفين فى مقام الحب والشوق والاشتياق روائع أدبية وشعرية يضيق عنها هذا التعليق الموجز .

* * *

٣٣ - وَثَنَايَا الحَسْنَا ضَاحِكَةٌ وَتَمَامُ الضِّحْكِ عَلَى الفَلَجِ

« **وثَنَايَا** » : المرأة . **الحَسْنَا** . بالفتْحِ ، والقصر ؛ للوزْنِ .. وبالضمّ مؤنّث أحْسَن ، ككُبْرى وأكْبَر .

وهى : أرْبعْ . ثِنْتانِ مِنْ أعْلى ، وثِنْتَانِ مِنْ أسْفَل .

« **ضَاحِكَةٌ** » : صاحبتها .

« **وتَمَامُ الضِّحْك** » : منها بكسْرِ الضّاد وإسْكانِ الحَاءِ : لغةٌ فى الضَّحِك . بفتْحِ الضّادِ مع كَسْرِ الحَاء ، وإسْكانُها ، وبكَسرِهما ، كائِنٌ .

« **عَلَى الفَلَجِ** » : منها ، بفتْحِ اللاّمِ مِن فَلِج بكَسْرِها . وهوَ تباعُد منَابِتِ الأسْنَانِ ، وهو حَسَنٌ فِيهَا .

أى : وأدلّة العِلْم وأسْبابُ العَمَلِ واضِحةٌ حَسِنة ، لا لَبْسَ فِيهَا ، يخافُ مِنْها الهَلاكُ والوقُوعُ فى الضّلَال ، وإنّما يخَافُ مِمّا يعْرِضُ للسّالِكِ مِنْ جِهَةِ الشّيْطانِ ، والنفس .

وتمام وُضُوحها بوضُوحِ أصْلِها ؛ لأنّه وضْعُ مَنْ لَا ينْطِقُ عَنِ الْهَوى .

فشبّه دلائِلِ العِلْم ، وأسْبابَ العَمَلِ ، بثَنَايا امْرأةٍ حسْناء ، وكَنَّى بكُلٍّ مِنَ الثّنايا ، والفلَج عَنِ المرْأةِ فى الحُورِ العِين . وبالضَّحِك عَنِ الرِّضا ، والسّرورِ ، أى : الحوْرَاءُ رَاضِيَة مسْرُورة ، بزوْجِها المُجِدّ فى الْعِلْمِ والْعَمل ، لا تبْغِى بِهِ بدَلًا ، وإنْ كانَ غيْرُه أجَلّ مِنْه وأحْسَن .. وتَمامُ رِضاهَا وسُرورِهَا معَ حسْن ذَاتِها : أىْ أنّ رِضَاهَا وسرُورها ، أمْرٌ جُبِلَتْ عليْه فى ذَاتِها الحسْنَاء السّلِيمة مِنْ كلِّ نقْصٍ لَمْ تتكلّفه لأمْرٍ تَخَافُ عَلَى نفْسِها أنْ يرْغَبَ بِهِ زوْجُها عَنْها مِنْ نقْصِ ذَاتِها ، وسُوءِ خُلُقها . ونحوهما .

« **وعلَى** » : للتّعْلِيل ، أوْ للمصَاحَبَة ، أو للاسْتِعانةِ . والجمْلَة الأخِيرة معْطوفَة عَلَى الّتِى قبْلَها ، أوْ حالٍ من ضَمِير « ضاحِكة » .

... ...

وفى البيت : **الاتّساع ، والتعطّف ، وشبْه الجِناس ، والتّكْمِيل .**

والاحْتِراسُ فى العَجز على تقدير أن ذلك كناية [1] : وهو أنْ يُؤتَى فى الكلامِ الّذِى يُوهِمُ خِلَافَ المرَادِ ، بما يدْفَع الإيهام ، ومنْه قولُهُ تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... ﴾ [2] فاحْترسَ بقوْلِهِ : ﴿ ... مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... ﴾ [2] عن إمكانِ أنْ يَدْخُلَ فى البيَاضِ البرَصُ والبهْق [3] :

* * *

(١) فى المطبوع « على تقدير أن ذلك كناية » ساقط .

(٢) سورة القصص ، الآية (٣٢) .

(٣) **البهق أو البهاق** : وهو بقع بيض رقيقة ، دون البرص تعترى ظاهر البشرة ، ويقال : رجلٌ أبهق : شديد البياض . (المعجم الكبير) .

المعنى العام

كنى الناظم بالحسناء ذات الثنايا ، **والثنايا** : أربع أسنان : ٢ من فوق ، و٢ من أسفل . والفلج : عن الحور العين الحسان المذكورات فى البيت (٢١) الحادى والعشرين ، وبضحكها الذى يظهر ثناياها الجميلة – عن سرورها ورضاها بزوجها الذى أمهرها العلم النافع والعمل الصالح . وبتمام ضحكها الذى يظهر فلجها الحسن ، عن تمام سرورها ورضاها به حتى لا تبغى به بديلًا ، وإن كان أجلَّ أو أسنّ ؛ لأنهن جُبِلْنَ عَلى السرور والرضا بأزواجهنّ فى جنة الخلد .

وفى هذا البيت مع ما تقدم من شأن الحور العين ورضاهن وأن مهورهن الطاعة : الحث على الجِدّ فى العلم ، وفى العمل بموجبه .

* * *

٣٤ - وَعِيَابُ الأَسْرَارِ قَدِ اجْتَمَعَتْ بِأَمَانَتِهَا تَحْتَ الشَّرَجِ

« **وَعِيَابُ** » : جمع عَيْبَة . وهى : وِعَاءٌ مِنْ جلْدٍ تُصَانُ فيهِ الأمْتِعَة كالثّيابِ ، ويُطْلَق مجَازًا ، علَى مَنْ هُوَ مَحَلّ سِرّكَ مِن رَجُلٍ أوْ امْرأةٍ .. ومنْهُ : « الأنْصَارُ كرْشِى وعيْبَتِى »[1] .

« **الأسْرَار** » : جمع سِرّ . وهو : ما يُكْتَم . وفى نُسْخَةٍ : « وعِيَابُ السّرّ » .

« **قَدْ اجْتَمَعَتْ** » : أى عِيابُ الأسْرَار .

« **بأَمَانَتِهَا** » : أىْ عليْها أوْ مَعَها . **والأمانَةُ** : ضِدُّ الخِيَانةِ .. والمرَادُ ما يؤْتَمَنُ عليْه .

« **تَحْتَ الشَّرَجِ** » ، بفتْحِ الشّين والرّاء : أىْ عُرَى العُيَاب . وأرادَ بالأسرار : أسْرارُ اللَّهِ فى خَلْقِهِ ، ممّا حَجَبَهم عَنْه ، ولَمْ يُطْلِعْ عليْه أحدًا إلّا مَنْ شاءَ مِمّن اصْطفاه .

فشبّه حجْبَ الأسرارِ الغيْبيّةِ ، فى منْعِه الخلْقَ عنْها ، إلّا ما يسّر له بعيْبَةٍ مَمْلوءَةٍ ، شُدَّتْ بعُرَاهَا شدًّا وَثِيقًا ، حتّى لا يخْرُجَ مِنْها شىْءٌ ، ولا يطّلِعَ علَى ما فِيها إلّا مَنْ أَذِنَ لَه فى حَلِّ عُرَاها ، فيَصِلُ إلَى ما فِيهَا مِنَ الأمَانَاتِ والأسْرَار .

قال بعضُ العارِفين : العِلْمُ بمنْزِلَة البَحْرِ ، أجْرَى مِنْهُ وادٍ ، ثمَّ مِنَ الوَادِى نَهْر ، ثمَّ مِنَ النّهْر جَدْوَلٌ ، ثُمّ مِنَ الجدُولِ سَاقِيةٌ . فلوْ جرَى البَحْرُ إلَى النّهْر ، أو الوادِى إلَى الجدْوَل ؛ لغرَّقَه وأفْسَدَه . وهو المرادُ بقوْلِهِ تعالَى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ... ﴾[2] .

فبحورُ العِلْم عنْدَ اللَّهِ أعْطَى الرّسُلَ مِنها أوْدِيةً ، ثمّ أعطَت الرُّسلُ مِنْ

---

(١) صحيح البخارى (رقم ٣٨٠١) . (٢) سورة الرعد ، الآية (١٧) .

... ...

أوْديتِها العُلمَاءَ أنْهارًا ، ثمّ أعطَت العلماءُ مِنْ أنْهارِها العامّةَ جدَاوِل بقَدْرِ طَاقَتِهم .

والمناسِبُ أنْ تقيّدَ العامّة بالمتفَقّهةِ . ويُقالُ : ثمّ أعطَتْ المتفقّهةُ مِنْ جدَاوِلَها غيْرَهم سَواقِيَ .

وسَبَبُ ذَلِك أنّ العقُولَ الضّعِيفَة لا تَحْتَمِلُ الأسْرارَ الْقويّة ، كما لَا يُبْصِرُ الخفّاشُ نورَ الشّمْسِ .

وممّا أخْفاه اللَّهُ تَعالَى عَنْ خَلْقِه : رِضَاهُ عنْهم ، فهوَ وإنْ كانَ فى الطَّاعَةِ ، لكنّ الطاعةَ التى يعلَم العبْدُ أنّ اللَّهَ يرْضَى عنْه بفعْلِها وَحْدها غَيْبٌ لا يعْلَمُها إلّا مَن أطْلَعه اللَّهُ عليْها ؛ لئلّا يحْتقِرَ المكلّفُ منْها شيْئًا .

وكذَا غَضَبُه علَيْهم : مخْفِيٌّ فى معْصِيَته لِذَلك .

وكذا ولاية اللَّهِ تعالَى : مخْفِيّة فى خلْقه .

قال ابنُ عطَاء الله : « أوْلياءُ اللَّهِ قَلِيلٌ مَنْ يَعْرفهم » .

قال : وسمعتُ الشّيخَ أبا العبّاس المُرْسِى [1] يقولُ : مَعْرِفةُ الوَلىّ أصْعَب مِنْ مَعْرِفة اللَّهِ تعالَى ، فإنّه تعالى معْرُوفٌ بكمَالِه ، وجَمالِهِ ، ومتَى تَعْرِفُ مَخْلوقًا مِثْلكَ يَأْكُل كمَا تأكُل ويشْربُ كَما تَشرَب [2] ؟! قالَ : وإذَا أرادَ اللَّهُ أن يعرّفكَ بوَلِىٍّ لهُ ، طوَى عنْكَ وجودَ بشَرِيَّتِهِ ، وأشْهدَكَ وجودَ خصُوصِيّته » . انتهى .

(١) أبو العباس المرسى ، هو : الشيخ الإمام أحمد . أبو العباس المرسى . كان من أكابر العارفين .. وكان يقال : إنه لم يرث علم الشيخ أبى الحسن الشاذلى عنه غير أبى العباس المرسى . وهو أجَلُّ من أُخِذَ عنه الطريق ، ولم يضع شيئًا من الكتب ، توفى سنة ٦٨٦ هـ . (طبقات الشعرانى رقم ٣١٠) .

(٢) ذكر له هذا القول فى (طبقات الشعرانى ١٥/٢) .

... ...

فوجودُ الْبَشَرِيّة كالعيْبَة المشْرَجَةِ علَى أمَانَتِها ، وهِيَ وُجُودُ الخُصُوصِيّة الْمَستُورَةِ بِها .

وحكْمة هذَا الإِخْفاء : حُسْنُ الظنّ بيْنَ الخلْقِ ، وهوَ مِنْ أجَلِّ القُرُباتِ .

والمقصودُ بهذَا البيْت : أنّ ما أُخْفِى عَن الْعالِم الرَّاسِخ ، والعارِف المُكاشِف : أكْثَر مما عَرفَه ؛ لأنّ كلَّ أحَدٍ إنّما يعْلَم ما فتَحَ اللَّهُ بِهِ عليهِ والله تعالى يقول : ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ... ﴾ (٢) .

﴿ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... ﴾ (٣) .

فإذَا ارْتضَى اللَّهُ أحدًا مِنْ خلْقِهِ أطْلَعه علَى بعْضِ تلْكَ الأسْرارِ المغيَّبةِ اللّدنيّة كما قالَ فى حَقّ الخِضْر (٤) : ﴿ ... وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٥) .

وفى البيت (*) : **الإيغال** :

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٨٥) . (٢) سورة هود ، الآية (١٢٣) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (٢٥٥) .

(٤) **الخضر** : أُختلف فى اسمه ونسبه ونبوته إلى أقوال عدة .

انظر : « البداية والنهاية » (٣٢٦/١) .

وقد حظى عند الصوفيين بمركز ممتاز ، إذ أن كثيرًا ما ادعوا اتصالهم المباشر به .

(٥) سورة الكهف ، الآية (٦٥) .

العلوم الغيبيّة قد تفيض على بعض الخواص (*)

بين الناظم والشارح أن المغَيّبات تحجب معرفتها عن الناس إلا ما شاء الله إظهاره منها ، لمن شاء ، وذلك كنفائس الأمانات ، التى توضع فى أوعية محكمة الإقفال ، لا يخرج منها شيء ، ولا يطلع أحد على ما فيها إلا من أذن له فى حل عراها ليصل إلى شيء مما فيها :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ... ﴾ [سورة الأنعام ، الآية ٥٩] . =

... ...

* * *

= **ومفاتح الغيب** : خزائنه .

وقد يظهر الله الرسول على شيء من غيبه ، فيعلمه على النحو الذى أراده الله ، وبالقدر الذى تقتضيه الحكمة : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... ﴾ .

[سورة الجن ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

فإنه يطلعه على بعض غيبه بالقدر الذى تقتضيه الحكمة : ﴿ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... ﴾ [سورة البقرة ، الآية ٢٥٥] .

على أنه بعد إظهاره لا يكون من عالم الغيب ، بل من عالم الشهادة ، وتسميته « غيبًا » ، إنما هو بحسب الظاهر أو بالنسبة لغير الرسل من الناس .

وهذا لا ينافى الآية كما نصوا فى التفسير إظهار الله بعض أصفيائه على ما شاء من غيبه تلميح وكرامة . وتصريح ومعجزة بالنسبة للرسل .

* * *

٣٥ - وَالرِّفْقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالْخَرْقُ يَصِيرُ إِلى الهَرَجِ

« **والرِّفْقُ** » : وهو التّوسّط ، واللّطَافة [١] فى الأمرِ ، والفِعْل مِنَ الأوّل « رِفْق » بالفتْح ، ومِنَ الثّانى بالفتْح والضمّ « يدُومُ » به العمل .

« **لصَاحِبِه والخَرْقُ** » بفتْح الخاء مصدر : (خَرُق) بضم الراء ، ويقال بكسْرِها : ضِدّ الرِّفْق . وبضمّ الخَاءِ : اسمٌ للحاصِلِ بالفعْل .

« **يَصِيرُ إِلَى الهَرَجِ** » بإسْكانِ الرّاءِ : الفتْنَةُ وكثْرةُ الفسَادِ ، وبفتْحِها : تحيّر البصَرِ .. لكِنّه علَى الأوّلِ فتْحُها أيضًا للوزْنِ .

وهوَ بالمعنَيَيْن : كنايَةٌ عن انْقِطاع الفِعْل ؛ لأنّ الفتْنةَ والتحيُّر لا يدُومُ معَهُما فِعْل .

أىْ : منْ [٢] سلكَ فى كلِّ ما مَرَّ مِنَ المطَالِبِ العِلْمِيّةِ والْعَمَلِيّة : الرِّفْقَ معَ النّاسِ فى تحْصِيلِها ، ولمْ يُجْهِد نفْسَه .. دَامَتْ له فاسْتفادَ وأفادَ ، وهدَى واهْتَدَى .

ومَنْ كلَّفَ نفْسَهُ فوْقَ طاقَتِها ، وعامَل الناسَ بصلابةِ الْجَانِبِ ، لم تَدُمْ لَه ، لجهْلِهِ ، فضَلَّ وأضَل [٣] .

وما ذكرَه فى البيت رواه ابنُ حِبّان فى صَحِيحِه بلفْظ : « ما كانَ الرِّفْقُ فى شَيْءٍ قطّ إلّا زَانَه ، ومَا كَانَ الخَرْق ، وفى رواية : (الفحْشُ) فى شيءٍ قطّ إلّا شانَه ، وإنّ اللَّهَ رفيقٌ يُحبّ الرفْق » [٤] .

---

(١) فى المطبوع : « الطافة » بدل : « اللطافة » تحريف .

(٢) فى المطبوع : « منى » بدل : « مَنْ » .

(٣) فى المطبوع : « فضل وأفضل » بدل : « فضل وأضل » .

(٤) الإحسان فى ترتيب أحاديث ابن حبان (١/٣٨١) .

واللفظ عن أنس رضى الله عنه .. وقد روى عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما بألفاظ مختلفة .

... ...

وروى البخارِىّ خبَر : « إنّ اللَّهَ يُحِبّ الرِّفْقَ فى الأمْر كُلِّه »[1].

وخبر : « إنّ الدِّينَ يُسْرٌ ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلّا غلَبَه فسَدِّدُوا وقارِبُوا وأبشروا »[2].

وفى البيت : **المقابلة** .

والعقد : هو أنْ يَنْظِمَ نثْرًا ، قرْآنًا ، أو حَدِيثًا ، أو مثَلًا ، أو غيره . لا علَى وجْهِ الاقْتِباسِ .

والفرْق بيْنَهما : أنّ الاقْتباس نَظْمُ قرْآنٍ أوْ حديثٍ خاصّة ، بلفظِهِ أوْ بتغْيِيرٍ يسيرٍ ، ولا ينبّهُ علَى أنّهُ مِنْهما . كما مرّ ، بخلاف العقْد فى جميعِ ذلك .

وبراعة الختام : وهى سهُولَة اللّفْظِ ، وحسْن السّبْكِ ، بحيْثُ يَرْتَسِمُ فى النّفْسِ ، ويتلَقّاهُ السّمْعُ ، ويسْتَلِذّه[*].

---

(١) صحيح البخارى (رقم ٦٠٢٤) . (٢) صحيح البخارى (رقم ٣٩) .

الرفق ومدْحهُ ، والخَرْق وذمّه[*]

« الرفق » : التوسط واللطافة فى الفعل .

وضده « الخَرق » بفتح الخاء ، وأما بضمها فهو اسم للحاصل بالفعل .

« الهرْج » بسكون الراء : الفتنة ، وحرك للوزن ، وبفتحها : تحيّر البصر .

وفى الحديث : « الرّفقُ خيْر كلّه » . و« ما كان الرّفق فى شىء إلا زَانه ، وما كان الخَرْق فى شىء إلّا شانَه » ، و« إنّ الله رَفِيقٌ يحبُّ الرّفق فى الأمْرِ كلّه » .

وحسب الرفق منقبةً أن الله يحبّه ويصف به نفسه .

أما الخَرق ، فهو بعكس الرّفق . شرٌّ كله ، يشين صاحبه عند الله والناس ، والأخْرَق مشئوم يجر على نفسه وعلى الناس الويلات والنكبات ! أينما توجه لا يأت بخير !

والخرق : إمّا إفراط وإسراف فيما لا خير فيه ، وإما تفريط وإهمال فيما فيه خير ، وكلاهما مذموم فى كل حال . =

... ...

ويجْبرُ ما وَقَع فِيما سَبَق مِنَ التّقْصِيرِ إنْ كانَ ولَا رَيْب أنّ هذا البيْت كذلك ، وهو أجْودُ بيتٍ يَحْسُنُ السّكُوتُ عليْه ، بلْ علَى كلِّ مِصْراعٍ منْه ، لتضَمُّنِه ما ورَدَ فى الخَبَرِ ، كما عُرِفَ .

ولمّا فرغَ مِنَ التّنْبيه علَى التّصْفِيَة القلْبِيّة ، والتّزْكِيَة النفْسِيّة ، وعلَى المقامَاتِ العِلْمِيّة ، والحِكَم النبويّة خَتَم ذلِكَ بالدّعاءِ للنّبى صلّى اللّهُ عليه وسلم الواضِع لِتلْكَ المسَالِك ، ولأصحابِهِ الأربعة الخلفاء ، الحافِظِينَ ، طرِيقَتَه ، الكاشِفِينَ لمَا أشْكَلَ من ذَلِك ، رضىَ اللّهُ عنْهم ، وعنْ سائِر الصّحابَةِ فَقَال :

* * *

= **والرفق** : هو الوسط بين الطرفين ، وهو الاعتدال المحمود الذى يؤتى أطيب الثمرات فى سائر الأمور من العلم والعمل فى العبادات ، والمعاملات ، وفى الأخلاق والعادات :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ [سورة البقرة ، الآية ١٤٣] .

فمن العقل والحكمة الاعتدال فى كل الأمور .

* * *

« صَلَوَاتُ اللَّهِ » تَعالى ، جمع : الصّلاة . باعْتِبَارِ أَنْوَاعِها .

وهِيَ من الله رحمة ، ومن الملائِكَة : اسْتِغْفار .

ومن الآدمى : تضرّعٌ ودعاء .

كائنَة « عَلَى » النبيّ محمّد . بن ، عبْد الله بن عبد المطلب . بنِ هاشم واسمه : عَمْرو . ابن عبْد مَناف . بن قُصَيّ . بن كِلابِ بن مُرَّة . بن كَعْب ابن لؤَيّ . بن غالِب . بن فهْر . بن مَالِك . بن النّضْر . بن كَنَانة . بن خُزَيْمة . ابن مُدْركَةَ . ابن إلْياس . بن مُضَر . بن نَزَار . بن مَعدّ بن عدْنان .

« **المهْدِيّ** » بفتْحِ الميمِ : أى الرّشيد الموفّق بخَلْق الهُدَى فيه ؛ لوجُوبِ عصْمَتِه .

« **الهَادِى** » : أى المرْشِد .

« **النّاسَ** » : مِنَ الإنْسِ ، والجِنِّ . بالنّصْب بالمفعوليّة ، وبالجرِّ بالإضَافةِ .

« **إلى النَّهَج** » بفَتْحِ الْهاءِ فى لغةٍ ، وفى لغةٍ[1] إسكانها : أى الطّرِيق المستقيم . قالَ تعالى : ﴿ ... وَإِنَّكَ لتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] : أى الدّين الشَّبِيه فى وُضُوحِه وأمْنِه بالطّريق الْواضِح .

فاستُعِير « النّهَجُ » فى النّظْم ، و « الصّراط » فى الآية لِمَا أتَى بهِ النبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلّم مِنَ الدّينِ المسْتَقِيم .

---

(١) فى المطبوع : « بفتح الهاء لغة فى إسكانها » بدل : « بفتح الهاء فى لغة وفى لغة إسكانها » .

(٢) سورة الشورى ، الآية (٥٢) .

وقد ذكر فى المخطوط : ﴿ ... وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بدل الآية المذكورة ، وهى الآية (رقم ٢١٣) سورة البقرة .

... ...

والجمْلة : خَبرِيّةٌ لفْظًا ، إنْشائِيّة معْنًى .. عدَلَ مِنْها إليْها ، للمبَالَغةِ فى وُقُوعِ الصّلَوات ، فكأنَّها ثابِتَةٌ ، أخْبَر عنْها بالحصُول .

وكانَ حقّه ذِكْر السّلام أيضًا ؛ لأنه يُكرَهُ إفرادُ الصّلاة عنْه وبالعَكْس ، ولعلَّه ذكَره لفْظًا .

وفى البيْت : **شبْه الازْدِوَاجِ ، وشبْه الجِناس ، والتّشْمِيم ، والإيغال** .

وتدْبيج الاشْتِراك وهو : اشتراك المصرَاعَيْن فى كلمةٍ واحدَة وهى هنا : « المهْدِىّ الهادى » لأن آخِرَ الأول منهما[1] الياءُ المدْغَمَة ، وأوّل الثّانى المدْغَمُ فيهَا .

* * *

(١) فى المخطوط : « المهدىّ ، لأن آخر الأول منها » بدل المذكور : « المهدى الهادى لأن آخر الأول منهما » .

خاتمة القصيدة

ختم الناظم قصيدته بالصلاة والسلام - وإن كان لم يصرح « بالسلام » لضيق النظم - على أفضل الرسل ، وخاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله الذى بعثه رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فشرّع للأمة بوحى من الله شرائع الحق والعدل والهدى والرشاد فى الدين والدنيا فكانت حكمة وسعادة لمن اتبع سبيلها وانتهج طريقها ، واتخذها دستورًا للحياة الدنيوية والأخروية .

وأفسح للعقول السليمة مجال النظر والتفكير والبحث والاجتهاد لاستنباط أحكام ما يجد من الوقائع ، وأجمع عليها مجتهدوا الأمة على نهج مستقيم يكفل صحة الاستنباط ، وصواب النظر والاجتهاد .

* * *

٣٧ - وأَبى بكْرٍ فى سِيرَتِهِ وَلِسَانِ مَقَالَتِهِ اللَّهَجِ

« و » عَلَى الإمَامِ . « أبى بَكْرٍ » وهوَ أفْضَل الصَّحابَةِ .

واسْمه : عبدُ اللَّهِ ، بن أبى قُحافَة عُثْمان بن عامِر ، بن عمْرو ، ابن كعْب ، بن سعْد ، بن تيْم ، بن مُرّة القرَشِىّ ، التيْمِىّ .

يلْتقى معَ النبىّ صلّى الله عليْه وسلّم فى (مُرّة) ، ويقالُ لهُ : عتيق ؛ لعتَاقَةِ وجْهه : أى جَماله .

وقيلَ : إنّه صلّى الله عليْه وسلّم قال فيه : « مَنْ سرّهُ أن ينْظُرَ إلَى عتِيقٍ مِنَ النّار ، فلينْظرْ إلى هذَا »[1] .

و (صِدّيق) لمبادَرتِه إلَى تصْدِيق النبىّ صلّى الله عليْه وسلّم فى جميع ما جاءَ بهِ ، فهوَ صادِقٌ .

« **فى سِيرَتِه** » : أى طرِيقَته الّتى منها مبادرَتُه للإسْلام مع وجاهَتِه ، ورياسَتِه ، ومنْها : إنْفاقُه ما أسْلَم عليْهِ مِن ماله وهو أرْبعون ألْفًا فى سَبِيلِ اللَّهِ ، وعلَى نبيّه صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلّم ، وإعْتَاقِهِ سبْعةً ممّن كانَ يعذَّبُ فى ذاتِ اللَّهِ ، كبِلالٍ ، وعامر بن فهيْرة .

« و » فى « لسان مَقَالَتِه : اللّهِجُ » بكسْر الهاء . أى : المثابِرُ علَى الصّدقِ من : لهِجَ بهِ يلْهَجُ لَهَجًا مثْل : فَرِحَ يفْرَحُ فَرَحًا .

وفى قولِ : « لسانُه » فاللَّهِجُ صِفَةُ اللِّسان ، ويجوزُ أنْ يكونَ صِفَة لأبِى بكْر .

وبالغ فِيما قالَه ، فجعلَ لِسَان قوْله ، ظرْفًا للصّدْق ، فلَا يتحرّكُ إلّا به ،

---

(١) فى هامش المخطوط : « وفى رواية : إلى أبى بكر » .
والحديث رواه الحاكم فى (المستدرك ٦١/٣) .

... ...

كما قالَ : إنّ سيرتَه ، ظرْفٌ للصِّدْق ، فاسْتَوى ظاهِرُه وباطنُه ؛ لأنّ الأفْعالَ والأقْوال دَلائِل السّرائِر ، وذلِكَ غايةُ الكمالِ .

و « فى » هنا ، وفيما يأتى ، للظّرفيّةِ أو للسّبَبيّة ، أو للمُصَاحبَة (*) .

وفى البيت : **التكميل** .

* * *

أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه (*)

أى وعلى أول الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق : عبد الله بن أبى قحافة . يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى (مرة) .

وهو أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثرهم عنده ، وأول من آمن به من الرجال ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من يدخلها مع رفيقه فى الهجرة وفى الغار وفى العريش يوم بدر ، وإمام المسلمين فى الصلاة بأمره صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى توفى فيه ، وقد صلى - عليه الصلاة والسلام - خلفه ، مؤتمًّا به فى مرضه ، وقد أعتق سبعة ممن كانوا يعذبون فى سبيل الله ، لإيمانهم بالرسالة كبلال وابن فهيرة ، وأنفق ما أسلم عليه من ماله فى سبيل الله وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو أربعون ألف .

ولما ولى الخلافة قام مقام صدق فيها ، وحارب أهل الردة من العرب ، حتى استقام الأمر وعز الإسلام ، وجمع صحف القرآن وسماه « مصحفًا » .

وتوفى لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة .. عن ثلاث وستين سنة ، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين القبر والمنبر ، ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل رأسه عند كتفيه عليه الصلاة والسلام .

* * *

٣٨ - وَأَبى حَفْصٍ وَكَرَامَتِهِ فِى قِصةِ سَارِيَةَ الخُلُجِ

« وَ » : عَلَى الإمَام .

« **أبِى حفْص** » : عمَر بْن الخطَّاب ، بن نُفَيْل ، بن عبْد العزَّى ، بن ربَاح ، ابنُ عبْد اللَّهِ ، بن قرْظ ، بن رَزَاح ، بن عَدى ، بنُ كَعْب القرَشِىّ العدَوِىّ .

يلْتقِى معَ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم فى (كعْب) .

« **وَكرَامَتِه** » : أى المعْروفَة الظّاهِرة .. إذْ له كرَامَات أُخَر . وفى نسخة : « وفراسَتِه » « فى قصّةِ سَارِيَة » بن حصْن ، أو الحُصَيْن ، أو زَنيمٌ الدّيلَمِىّ [١] .

من أنّه كانَ يوْم الجُمُعَة ، يخْطُب بالمدِينَة ، فرَأى العسْكَر بـ (نَهاوَنْد) [٢] وجعَلَ يَصِيح : « يا سَارِيَة الجَبَلَ الْجَبَل » فصعدَ سارِيةُ وجنْدُه الجبلَ ، وقاتَلوا الكفّار فهزَمُوهُم ، وكتَبُوا بذلِكَ إلَى عمَر رضى الله عنه ، وجاءهُ البَشِيرُ بعْدَ شهْرٍ ، وأضَافَ « سَارِيَةَ » إلَى « الخُلُج » بضمّ الخاءِ واللّام : قوْمٌ مِنَ العرَب مِنْ عدْوان [٣] ، فألْحقهم عمرُ بن الخطاب ، بالحارث ابنِ مالِك بْن النّضر بن كنَانَة [٤] .

---

(١) هو : سارية بن زنيم بن عبد الله الكنانى : صحابى ، من الشعراء ، القادة الفاتحين .. كان لصًّا فاتكًا فى الجاهلية ، كثير الغارات ، يسبق الفرس عدوًا على رجليه . أسلم لما ظهر الإسلام وجعله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أميرًا على جيش وسَيَّره إلى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ، وهو المعنى فى قول عمر رضى الله عنه : « يا سارية الجبل » . (الإصابة ، ترجمة رقم ٣٠٣٤) .

(٢) **نَهاوَنْد** : مدينة فى بلاد الجبال ، جنوبى همدان . بينهما أربعة عشر فرسخًا وبها آثار حسنة للفرس ، وفى وسطها حصن عجيب البناء ، عالى السمْك ، وبها قبور جماعة من شهداء المسلمين . (معجم البلدان) .

(٣) **عدوان** : كانت تتولى الإفاضة على سعى الحجيج بين عرفات ومزدلفة ، وهم بطن من قيس .

(٤) لعله الحارث بن مالك الكنانى المعروف بابن البرصاء . سكن مكة ، ثم المدينة وبقى حتى خلافة معاوية . انظر : « الإصابة » (٦٨٨/١) .

... ...

وسمُّوا بذَلِك ؛ لأنهم اخْتلَجُوا مِن عُدْوان : أى اقتطعوا . قالهُ الجلالُ السيُوطى [1] رَحِمَه اللَّهُ تعالَى اختلَجُوا من عُدْوان .

وبفَتْحِهما : أنْ يشْتكِى الرجُلُ عِظَامَه مِنْ عمَلٍ أو طولِ مشْيٍ وتَعب .

وبفتح الخَاء ، وكسْر اللّامِ : المشْتَكِى مِنْ ذَلِك ، تنْبِيهًا علَى عِظَمِ الأمْرِ وشدّةِ الكُرب .

كقوْلِهمْ فى جَدِّ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم : (شَيْبَةَ الحمْد) لكثْرة حمْد النّاسِ لهُ فى الأمُورِ .

وقوْلهم فى طلْحَة الصّحابِىّ : (طلْحَةُ الخيْر) [2] لكثْرة خَيْره .

ويجوز : جعْلُه نعْتًا لسَارِية ، وإنْ كانَ مصْدَرًا ، بتَقدِير : فتْح اللّام ؛ لأنّ المصْدَر يُنْعَتُ بهِ علَى المبَالَغةِ .

أوْ لِتأوِيلهِ : بالوصْفِ .. والكرَامة : أمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ علَى يَدِ ولِىٍّ ، غيْر مُقارَن لدعْوَى النبوّة مِنْه .

---

(١) جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١ هـ) ولد بالقاهرة ، ونشأ يتيمًا ، وحفظ القرآن وهو دون ٨ سنوات ونبغ فى التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع واللغة ، وسافر إلى الشام ، واليمن ، والحجاز ، والهند ، والمغرب . وقد أنافت مؤلفاته على ٧٠٠ كتاب منها : « طبقات المفسرين » ، و« طبقات الحفاظ » .

(٢) هو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه : صحابى من العشرة المبشرين بالجنة . هاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وجرح فى الدفاع عنه فى أُحُد .

وأحد الستة الشورى ، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يوم كله لطلحة ، وسماه النبى صلى الله عليه وسلم (طلحة الخير وطلحة الجود ، وطلحة الفياض) .

استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين .

... ...

وفيها تثْبِيتٌ لَه ؛ ولهذَا رُبّما وجدَهَا أهلُ البِدَايَاتِ فى بِدَايَتِهم ، وفقدَها أهلُ النّهاياتِ فِى نِهايَتِهم ؛ لأنّ ما هُمْ عليْهِ مِنَ الرُّسُوخِ ، والتّمَكّنِ لا يحْتاجُونَ معَهُ إلى تثْبيتٍ ؛ ولذلِكَ قَلّ ظُهورُهَا علَى يدِ السَّلَفِ الصّالِح مِنَ الصّحَابةِ والتّابِعين .

واعلَمْ أنّ الأمر الخارِقَ للعادَةِ بالنّسبة إلى النبىّ (معْجِزة) سواءٌ ظَهَر مِنْ قَبْله ، أمْ مِنْ قبلِ آحادِ أمّتِه .

وبالنّسبة إلى الوَلِىّ (كرَامَة) لخلوّه عنْ دعوَى نُبُوّة من ظهر ذَلِك مِن قبْله .

وبالنّسبة إلَى غيْرِهمَا (خُذْلانٌ واسْتِدْرَاجٌ) .

والنبىّ لا بدّ من عِلْمه بأنّه (نبىّ) ، ومِنْ قصْدِهِ إظْهارُ الخَوَارِق ، ومنْ حُكْمِه قطْعًا بمُوجِب المعْجِزات .

بخلافِ الوَلِىّ ، وصاحِبِ الكَرَامةِ لا يَسْتَأنِسُ بِهَا ، بلْ يشتدّ خوْفُه ؛ مخافَة أنْ يكونَ ذلِكَ اسْتِدْراجًا .

والمسْتَدْرَج يسْتَأنِس ممّا ظهر عليْه[1] ، وعنْدَ ذَلكَ يسْتَحقِر غيْرَه ، ويُنْكِر عليْه ، ويَحْصُل لَهُ الأمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وعقابِه .

فإذا ظهرَ شىءٌ من هذِهِ الأحْوَال علَى مَنْ ظهَرَ عليْه ذَلِك دلَّ على أنّه اسْتِدْرَاجٌ لا كَرَامَة .

ولذلك قالَ المحقّقُونَ : أكْثَرُ ما اتُّفِقَ مِنَ الانْقِطاع عن حضْرَة الربّ ،

(١) فى المطبوع : « بما شهر عليه » بدل : « مما ظهر عليه » .

... ...

إنّما وقَعَ فى مقامِ الكَرامَاتِ ، ولذلِكَ كانُوا يخافُونَ مِنْها كمَا يخافُونَ مِن أشدِّ البلاءِ(*).

وفى البيت : **التّلميح** : من لَمحَهُ : إذَا نظَرَهُ وهوَ : أنْ يُشِيرَ فى الْكلَامِ إلَى قِصّةٍ ، أو شِعْر ، أوْ مثل سائِرٍ ، مِنْ غيْرِ أنْ يبيّن واحِدًا منْها فيه ، كما أشَار إلَى (قِصّة سارِية) ولم يبيّنْها .

عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه(*)

أبو حفص : كنية عمر رضى الله عنه .

وسارية بن حصن الديلمى : قائد جيش المسلمين فى (نهاوَنْد) ، وقد أطلع الله عمرَ ، وهو يخطب على المنبر فى المدينة يوم الجمعة على العسكر فرآهم محصورين ، فجعل يصيح : « يا سارية الجبل الجبل » فسمع سارية الصوت ، فانتحى بالجند إلى الجبل ، وقاتل العدو حتى انتصر ، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان كما وقع .

وهذه إحدى كرامات الفاروق رضى الله عنه .

وعمر : ثانى الخلفاء الراشدين ، وهو : عمر بن الخطاب ، بن نفيل ، بن عبد العزى ، بن رباح ، ابن عبد الله ، بن قرز ، بن رزاح ، بن عدى ، بن كعب القرشىّ العدوىّ .

يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جده (كعب) .

وعمر : هو الذى أعز الله به بإسلامه الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، ونزل القرآن بموافقته فى عدة مواطن وكان شديدًا صارمًا فى الحق ، وفتح الله الفتوح العظيمة على يديه ، بعد أن ولى الخلافة . ومناقبه لا تكاد تحصى .

وقد طعن بيد أثيمة وهو فى الصلاة ، لست بقين من ذى الحجة ، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، عن ثلاث وستين سنة ، ودفن يوم الأحد ، هلال المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة ، بجوار رفيقه أبى بكر الصديق ، فكانا رفيقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجرة بعد الوفاة ، كما كانا رفيقيه الملازمين له فى الحياة . وتلك منقبة عظيمة للشيخين رضى الله عنهما .

* * *

٣٩ - وَأَبى عَمْرٍو وَذِى النُّورَيْنِ الـمُسْـتَحْـى الـمسْتَحْيَا الْبَهِجِ

« و » على الإمَام . « أَبِى عمْرٍو » ، ويقالُ لَه : أبو عبْد اللَّهِ ، وأبُو ليْلَى .

عثمانُ بن عفّـان بن أبى الْعـاص ، بنُ أميّة ، بنُ عبْدِ شمْس ، بنُ عبْـدِ منَاف ، بن قُصَىّ الأمَوِىّ .

يلْتقى معَ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم فى (عبْد منَاف) .

« ذِى النّورَيْن » لأنّه تزوّجَ بِنْتَىْ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم : رُقيّة ، ثم أمّ كلْثوم رضى الله عنهما ، وبعدَ موْتِها قالَ له النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم : « لوْ كانَ لِى غيْرُهَا لزَوّجْتُكَهَا » [١] .

« المسْتَحْى المُسْتَحْيَا » بكسْرِ ياءِ أحَدِهما ، وفتْحِ ياءِ الأخْرى .

لأنّ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم كان جَالِسًا بحافّةِ بئْرٍ وهوَ مكْشُوفُ الفَخذِ ، فدخلَ أبُو بكْرٍ ، فلَمْ يُغَطِّ فَخْذَه ، ودخَلَ عمرُ فلمْ يغطّه ، ودخلَ عثمان فغطَّاهُ ! وقال : « ألَا نَسْتَحِى مِمّنْ استَحْيَتْ مِنْه الملَائِكة » ؟! رواه البخارىّ [٢] وغيْرُه .

ورُوِىَ أنّه صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم قال : « عثْمانُ أحْيَا أمتى ، وأكْرمَها » [٣] .

وفى نسخة : « المستَهْدِى المسْتَحْيِى » ، وفى أخرى : « المستَحْيِى المُحْيَى » بكسْر ياء الأول أو فَتْحه ، وفتح ياء الثّانى : إشارَة إلَى أنّهُ شهِيدٌ ، فَهوَ حىّ بِنصّ القرآن .

---

(١) انظر : « البداية والنهاية » (٣٩/٥) .

(٢) أخرجه مسلم فى « فضائل الصحابة » (٢٦) ، وأحمد (٧١/١) .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (٥٦/١)

... ...

« البَهِج » بالموحّدةِ : أىْ حسَنُ الخُلُق والخَلْقِ .

قال ابنُ عبْد البَرّ[1] : كانَ جميلًا ، طويلَ اللّحْيَة ، حسَن الوجْه .

وقالَ فى موْضِع آخر : كان رَبْعة ، حسَن الوجْه ، رقيقَ البِشْرة ، عظِيم اللّحْية ، أسْمَر اللّوْن كانَ يصَفّر لحيَتَه ، ويشدّ أسْنَانَه بالذّهَب !

وفى نسْخَة : « النّهِج » بالنّون من نَهَجَ الطّريقُ : أى وَضُحَ ، أوْ من نَهَج ، وأنْهَجَ : أى بَلِىَ ، أو من نَهَجت الطريق ، وأنهَجْته : أى أوضَحْته .

فيكونُ على الأوّل : إشارَةٌ إلى اشْتِهار فضْلِ عُثْمان ووُضُوحِه ، كوُضُوحِ الطّرِيقِ المسْلُوكَةِ .

وعلى الثانى : إشارَةٌ إلَى ما أُصِيبَ بهِ فى ذَاتِ اللَّهِ تَعالى من انْتِهاك حرْمَته ؛ لأنّ بَلاءَ الثّوْب إنما يكُونُ غالبًا بقلّةِ المُبَالاةِ فى اسْتِعْماله .

وعلَى الثّالِث : إشَارَة إلى إيضَاحِه طرِيقَ الإسْلامِ بتمْيِيزِ القُرْآن عن غيْره ، وجمْعِه لَه فى المصَاحِف ، وتوْجِيهِها لأمْصارِ المسْلِمين[*] .

---

(١) **ابن عبد البر** : هو أبو عمر . يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى : من كبار حفاظ الحديث : أديب ، ومؤرخ ، ولد بقرطبة ، وولى قضاء لشبونة ، وشنترين . له : « جامع بيان العلم وفضله » ، و « والاستيعاب » وغيرهما . توفى سنة ٤٦٣ هـ .
(وفيات الأعيان ٣٤٨/٢ ، والصلة ٦١٦) .

عثمان بن عفان رضى اللّه عنه[*]

أبو عمرو أو أبو عبد اللّه ، أو أبو ليلى كنيته : عثمان رضى الله عنه .
ذى النورين لقبه ، لتزوجه (رقيّة) ، ثم (أم كلثوم) بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وهو عثمان ، بن عفان ، بن أبى العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، بن قصىّ القرشى الأموى . =

... ...

وفى البيت : **الجناس المحرَّف** :

* * *

= يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى (عبد مناف) وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشّرين بالجنة .

هاجر الهجرتين ، وتزوج السيدتين الكريمتين بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إحداهما بعد موت الأخرى ، وبعد الثانية قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كان لى غيرها لزوجتكها » .

وهو الذى أمر بجمع القرآن وكتابة المصحف الإمام ، وإرساله إلى أقطار الإسلام ، فكان ذلك أعظم مِنَّةً على المسلمين إلى يوم الدين .

وهو أحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ .

وقد جهز جيش العسرة من ماله .

واشترى من ماله موضع خمس سوار ، وزادها فى المسجد النبوى الشريف .

استشهد وهو يقرأ القرآن فى المصحف ، يوم الجمعة لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة ، سنة خمس وثلاثين . عن اثنتين وثمانين سنة وأشهر على الأصح . ودفن فى البقيع رضى الله عنه .

* * *

٤٠ - وَأَبى حَسَنٍ فى العِلْمِ إِذَا وَافَى بِسَحَائِبِهِ الخُلُجِ

« وَ » علَى الإمَام . « أبى حسَنٍ » : علىّ بنُ أبِى طَالب (*) .

واسمه : عبْد منَاف ، بن عبْد المطّلب . جدّ النبىّ صلّى اللَّهُ عليْه وسلّم . ويقالُ له : « شيْبَة الحمْد » كما مرّ ابنُ هاشِمٍ ، بنُ عبْد منَاف ، بن قصَىّ القرَشىّ الهاشِمىّ .

يُفْزعُ إليْه « فى العِلْم إذَا وافَى بسحائِبِه » جمْع : سحابَة ، وهى : الغَيْم ، كما مرّ .

علىّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه (*)

أبو الحسن : كنيته علىّ كرم الله وجهه .

وهو علىّ ، بن أبى طالب ، بن عبد المطلب ، بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمه : فاطمة بنت أسد بن هاشم .

فهو أول هاشمى يولد من أبوين هاشميين .

ورابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم النبى صلى الله عليه وسلم .

وأول من آمن به من الصبيان . وكان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربيته ، وهو الذى نام على فراشه صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة حتى ظن المشركون أن النائم هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو زوج فاطمة رضى الله عنها بنت النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد رزق منها : الحسن والحسين ، ومُحسن الذى مات صغيرًا ، وزينب ، وأم كلثوم .

وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

تعهده الرسول صلى الله عليه وسلم طفلًا ، ورباه صبيًّا ، وثقفه فتًى ، وقال عنه : « أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها » أخرجه الحاكم (١٢٦/٣) ، ثم إن عليًّا قد كرم الله وجهه ، فلم يسجد لغير الله تعالى ، وما دخل قلبه منذ الطفولة شىء غير الإسلام ، ثم كان هو المجاهد العظيم فى سبيل الله ، وما صارع أحدًا إلا صرعه .

وقد علم الصحابة رضى الله عنهم مكانة علىّ عند الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنهم ومعهم المسلمون فى كل مكان وزمان ليقولون فى كل صلاة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. وبارك على محمد وعلى آل محمد .

وقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا علىّ ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين ؟ =

... ...

« الخُلُج » بضمّ الخاء واللّام ، جمع : خَلُوج . بفتْح الخاءِ : السّحابُ المتفرّق . ويُقالُ : السّحابَةُ المتفرِّدَة الكثِيرَة الماء .

استعارَ لأنْواعِ عُلومِهِ السّحائِبَ ، ورشّحَ هذِه الاسْتعارة ، مبالغَةً بالخُلُج ، أى : يُفْزَعُ إليْه فى مُشْكِلاتِ العِلْم ؛ لتَعْلِيمِه إيّاه ، ، إذ أتَى بعُلُومِه الكَثِيرة النّفْع لِلنّاس ، فى كلِّ فنٍّ ، وكلّ ناحِيَة ، كالسّحَائِبِ المتفرّقةِ النّافِعَة بمائِها .

وقام الإجْماعُ علَى غَزارَةِ عِلْمِه ، وما احْتُجّ بهِ من خَبرٍ : « أنَا دَارُ الحِكْمَة » ، وفى رواية : « مَدِينَةُ العلْم ، وَعلىٌّ بابُها »[1] .

قال الترمذىّ : إنّهُ منْكر . والنّوَوِىّ : إنّه باطِلٌ .

لكنْ قالَ الحافِظ أبُو سعِيدٍ العَلائى : الصّوابُ أنّهُ حسَن ، باعْتِبار طرُقِه ،

= قال : بلى : يا رسول الله . قال : تعطى مَنْ حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » . انظر : « مجمع الزوائد » (١٨٩/٨) .

وأوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم حين زوجه فاطمة الزهراء ابنته رضى الله عنها ، قال : « يا علىّ ، لا تغضب ! إذا غضبت فاقعد ، وتذكر قدرة الله تعالى على العباد ، وحلمه عنهم ، وإذا قيل لك : اتق الله ، فاترك غضبك عنك ، وارجع لحلمك » . انظر : « جمع الجوامع » (٢٢٢٦) .

وعلّمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن : « من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ، ملأه الله إيمانًا وأمنًا ، ومن وضع ثوب جمال ، تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ، كساه الله تعالى حلة الكرامة » . أخرجه أحمد (٤٤٠/٣) .

وعلّمه أن : « من استأجر أجيرًا فظلمه ، ولم يوفه أجره ، فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن أكن خصمه فأنا أخصمه (أى أغلبه) » . أخرجه البيهقى (١٢٠/٦) .

على هذه التعاليم التى تلقاها منذ نعومة أظفاره ، عاش علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

واستشهد ليلة الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، عن ثلاث وستين سنة على الصحيح ، واختلف فى موضع دفنه رضى الله عنه .

* * *

(١) رواه الحاكم فى (المستدرك ١٢٦/٣) .

... ...

وبهِ أفْتَى شيْخُنا حافِظُ عصْرِه : العسْقَلانِى [1] .

ومنْ كِلماتِه الغرّ . تسْعُ كلِماتٍ .. ثلاثٌ فى المناجَاتِ ، وهى : كفَانِى فخْرًا أنْ تكونَ لِى ربًّا . وكفانِى عِزًّا أنْ أكُونَ لَكَ عبْدًا . وأنتَ كمَا أَحبّ . فاجْعَلْنِى كَمَا أُحِبّ .

وثلاث فى الحِكْمة ، وهى : قيمَةُ كلِّ امْرِئ ما يُحْسن . وما هلَكَ امرْؤٌ عرَفَ قدْرَ نفْسه . والمرْءُ مخبوءٌ تحْتَ لِسانه .

وثلاثٌ فى الأدَب ، وهى : استغْنِ عمّنْ شِئْتَ فأنْتَ نظِيرُه . وتفضّلْ علَى مَنْ شِئْتَ فأنْتَ أمِيرُه . واضْرَعْ لمنْ شِئْتَ فأنْتَ أسِيره .

فهذِه من مفارِيدِ كلماتِه ؛ ليُسْتدلّ بها علَى ما لمْ نذْكُر منْها .

و (باء) « بسَحَائِبه » للمصاحَبةِ مثْلُها فى : جاءَ زيْدٌ بعلْمِه ، وبِثِيَابِه : أى ملابِسًا سحَائِبَه .

وفضائِلُ الأئمّةِ الأرْبعة مذْكورَةٌ فى محالّها . وإنّما اقتصَرْتُ علَى ما ذُكِر ؛ لكون النّاظِم أشارَ إليْه .

وفى البيت : **التتميم** ، **والإيغال** .

وفى نسخة بدل : « الخلج » « البلج » [2] .

---

(١) ابن حجر العسقلانى . ولد فى مصر القديمة . حجة مشهور فى الحديث ، ومؤرخ ، وفقيه ، شافعى المذهب . قام بعدة رحلات فى مصر والشام والحجاز ، واليمن طلبًا للعلم فلقب بحافظ عصره ، كُتُبُهُ تزيد على ١٥٠ كتابًا ، منها : « الإصابة فى تمييز الصحابة » ، و « فتح البارى فى شرح صحيح البخارى » .

(٢) إلى هنا ، وتمت القصيدة مع شرحها .

أما ما جاء بعد ذلك من أبيات فهى زيادات زيدت بعد من القارئين .

... ...

وبعد ذلك :

وصَحَابَتِهِ وقَرَابَتِه وقفاةَ الأثَرِ علَى نهج[1]
وإذَا بِكَ ضَاقَ الذّرْعُ فقُلْ « اشْتَدّى أزْمَةَ تنْفَرِجِى »

وفى نسْخَة أُخْرى بَدَل هذيْن البيْتَين خمسة أبياتٍ وهى :

وهدًى بضياءِ الذّكرِ وذل القوْمَ علَى أسْنى نَهِجِ
وعلَى أتْباعِهُمُ العُلَمَا بعَوارِفِ دِينِهم النّهِجِ
وعلَى السّبْطيْن وأمّهمَا وجميعِ الآلِ بهِمْ تَلجِ
وعلَى الأصْحابِ بجمْلَتِهم بذَلُوا الأمْوالَ معَ المُهَجِ
يارَبّ بِهِمْ وبآلِهِم عجِّلْ بالنّصْر وبالفَرَجِ

قال المصنف[2] رضى الله عنه : « وأنَا أتوسّل إلَى اللَّهِ تعالَى بالنّاظِمِ وأمْثَاله أنْ يمنّ علَىّ وعلَى أحبّائِى بتوْبَةٍ صَادِقَةٍ ونعْمةٍ صافِيَةٍ ، وعافيةٍ وافيةٍ »[3] .

وقال أيضًا : كان الله له فى الدّارَيْن ، وبلّغَنِى والمسلمين ببركَةِ علُومِهِ فى الدّنْيا والآخِرة[3] .

تمّ الشرح[4] بحمد الله وعونه فى حادى عشر ذى الحجة الحرام[5] سنة إحدى وثمانين وثمانى مئة .

---

(١) فى المطبوع : « على عوج » بدل : « على نهج » .
(٢) يريد الشارح الشيخ زكريا الأنصارى .
(٣ - ٣) فى المخطوط ما بين الرقمين : « وقال أيضًا ... والآخرة » غير موجود .
(٤) فى المخطوط : « قال مؤلفه ، فسح الله مرقده ونوّر مضجعه : تم الشرح » .
(٥) فى المخطوط : « شهر المحرم الحرام » بدل : « شهر ذى الحجة الحرام » .

... ...

والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون وسلم تسليمًا كثيرًا .

[ويليه نص القصيدة المنفرجة مضبوطة لقراءتها] .

* * *

قصيدة المنفرجة

١ – اشتدِّى أزْمَـةُ تَـنفَرجِى قَـدْ آذنَ لِيـلُكِ بالبَـلَجِ
٢ – وظـلامُ اللّيْـلِ لَـهُ سُـرجٌ حتَّى يغْشَـاهُ أبُو السُّرُجِ
٣ – وسَحَابُ الـخيْرِ لَـهُ مَطَرٌ فـإذَا جَـاءَ الإبَّـانُ يجـى
٤ – وفـوائـدُ مـولانـا جُمَـلٌ لِسُرُوحِ الأنفُسِ والـمُهجِ
٥ – ولهـا أرَجٌ مُحْى أبَـدًا فاقْصِـدْ مَحْيا ذاكَ الأَرَجِ
٦ – فَلربَّـتمَا فـاضَ الـمحْيَـا بِبُحُورِ الـمَوْجِ من اللُّجَجِ

* * *

٧ – والْـخَلْقُ جَمِيعًا فى يَـدِهِ فَـذَوُو سعَـةٍ وذوُو حَـرَجِ
٨ – ونُـزُولُهُـم وطُـلُوعُهُـمُ فعَـلَى دَرَك وعَـلَى دَرَجِ
٩ – ومعـايشُهمْ وعَـوَاقِبُـهمْ لَيْسَتْ فى المشْيِ علَى عِوَجِ
١٠ – حِكَمٌ نُسِجَتْ بيَدٍ حَكَمَتْ ثـمَّ انْـتَسَجَتْ بالـمُنْـتَسَجِ
١١ – فإذَا اقْتَصَدتْ ثمّ انْعَرَجَتْ فَبِـمُقتَصِـدٍ وبـمُنْـعَـرِجِ

١٢ – شَهِدَتْ بعَجَائِبِها حُجَجٌ قامَتْ بالأمْرِ عَلى الحِجَجِ

* * *

١٣ – ورضًا بقضاء اللَّه حَجًا فَعَلَى مرْكوزَتِهِ فَعُجِ

١٤ – وإذَا انْفَتحَتْ أبْوَابُ هُدًى فاعْجَلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ

١٥ – وإذَا حَاوَلْتَ نِهَايَتَها فَاحْذَرْ إذْ ذَاكَ مِنَ العَرَجِ

١٦ – لِتكونَ مِنَ السَّبَّاقِ إذَا مَا جِئْتَ إلَى تِلْكَ الفُرَجِ

١٧ – فهُنَاكَ العيْشُ وبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِجٍ ولِمنْتَهِجِ

١٨ – فَهِجِ الأعْمَالَ إذَا رَكَدَتْ فإذَا مَا هِجْتَ إذًا تَهِجِ

* * *

١٩ – ومَعاصِي اللَّهِ سمَاجَتُها تَزْدَانُ لِذِي الخُلُقِ السَّمِجِ

٢٠ – ولِطَاعَتِهِ وصَبَاحَتِها أنْوَارُ صَباحٍ مُنْبَلِجِ[1]

٢١ – مَنْ يَخْطُبْ حُورَ الخُلْدِ بِهَا يَظْفَرْ بالحُورِ وبالغُنُجِ

٢٢ – فكُنْ المَرْضِيَّ لَهَا بِتُقًى ترْضَاهُ غَدًا وتكونُ[2] نَجِي

* * *

٢٣ – واتْلُ القرآنَ بقلْبٍ ذِي حَزَنٍ وبصوْتٍ فيهِ شَجِي

٢٤ – وصَلَاةُ اللّيْلِ مسَافَتُهَا فاذْهَبْ فِيهَا بالفَهْمِ وَجِي

---

(١) فى المخطوط : « مبتلج » بدل : « منبلج » ، والتصويب عن الشارح .

(٢) فى المخطوط : « فتكون » بدل : « وتكون » ، والتصويب عن الشارح .

٢٥ – وتأمَّلْهَا ومَعَانِيهَا تأْتِ الفِرْدَوْسَ وتنْفَرِجِ
٢٦ – واشْرَبْ تَسْنِيمَ مفجَّرهَا لَا مُمْتَزِجًا وبمُمْتَزِجِ

* * *

٢٧ – مُدِحَ العَقْلُ الآتِيهِ هُدًى وَهَوًى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِى
٢٨ – وكِتَابُ اللَّهِ رِيَاضَتُه لِعُقُولِ الْخَلْقِ بِمُنْدَرِجِ
٢٩ – وخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاتُهُمُ وسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ
٣٠ – وإذَا كُنْتَ المِقْدَامَ فَلَا تَجْزَعْ فِى الْحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ
٣١ – وإذَا أبْصَرْتَ مَنَارَ هُدًى فَاظهَرْ فَرْدًا فوْقَ الثَّبَجِ
٣٢ – وإذَا اشْتاقَتْ نفْسٌ وجَدَتْ أَلَمًا بالشَّوْقِ المُعْتَلِجِ
٣٣ – وثَنَايَا الحَسْنَا ضَاحِكَةٌ وتَمَامُ الضِّحكِ علَى الفَلَجِ
٣٤ – وعِيَابُ الأسْرَارِ قَدْ اجْتَمَعَتْ بأَمَانَتِهَا تَحْتَ الشَّرَجِ
٣٥ – والرِّفْقُ يَدُوم لِصَاحِبِهِ والْخَرْقُ يَصِيرُ إلَى الْهَرَجِ[1]
٣٦ – صلوات اللَّه علَى المَهدِىِّ الهادِى الناسَ إلى النَّهجِ
٣٧ – وأبِى بَكْرٍ فِى سِيرَتِه ولِسَانِ مَقَالَتِهِ اللَّهِجِ
٣٨ – وأبِى حَفْصٍ وكَرَامَتِهِ فى قصّةِ سَارِيةَ الخُلُجِ
٣٩ – وأبى عَمْرِو ذِى النُّورَيْنِ الْمُسْتَحْيِ الْمُسْتَحْيَا البَهِجِ

* * *

(١) فى المخطوط : « إلى الهزج » بدل : « إلى الهرج » ، والتصويب عن الشرح .

٤٠ - وأبى حَسَنٍ فى الْعِلْمِ إذَا وَافَى بسَحَائِبِهِ الخُلُجِ

* * *

تمت القصيدة المباركة

وصحَابَتِهِ وقَرَابَتِهِ وقُفَاة الْأَثَرِ عَلى نَهِجِ
وعَلَى تُبَّاعِهُمُ الْعُلَمَا بعوَارِفِ دِينِهُمُ البَهِجِ
وعَلَى السِّبْطَيْنِ وأُمِّهِمَا وَجَمِيعِ الْآلِ بِهِمْ تَلجِ

* * *

قصيدة المنفرجة

شعر

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)

تحقيق

الدكتور جلال شوقي

عميد كلية الهندسة بجامعة قطر

دراسة .. وتقديم

الدكتور عبد المجيد دياب

حُجّة الإسلام
أبو حامد الغزالى

علمٌ من أعلام الفكر الإنسانى ، هذا العلَم عرفه المسلمون وغير المسلمين فى الشرق والغرب عامّةً ، فهو أكبر وأشهر من أن نُعرِّف به ونترجم له ، لكنّا نذكِّر بمولدِهِ ووفاته (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) = (١٠٥٨ - ١١١١ م) .

ومنذ أوائل القرن السادس الهجرى أخذ الباحثون فى مشارق الأرض ومغاربها يتدارسونه ، وينقلون عنه ، ويحتجون به إلى يومنا هذا .

ولم يقف أثره عند الشرق ، بل امتد إلى الغرب ، فأخذوا منه ، وعنه ، وترجم الكثير من كتبه إلى مختلف لغات العالم .

فلو أردنا أن نشير إليه بلقب فماذا نحن قائلون ؟ أنسميه صوفيًّا ؟ أم فيلسوفًا ؟ أم فقيهًا ؟ أم متكلِّمًا ؟ إنّ كلَّ تسميةٍ من هذه التسميات قد تسىء إلى الغزالى إذا أطلقت عليه ! أو تنقصه بعضَ حقّه على الأقل !

ولقد كان من التوفيق إلى حدٍّ بعيد أن يلقَّب الغزالى بـ « حجة الإسلام » لأنه ممن تعرّضوا للفقه ، وللكلام ، وللتصوّف ، وللفلسفة . ولم يكن فى خياله ولا فى منهاجه إلّا الدفاع عن الإسلام ، بفكْر نيِّر ومنطقٍ مستقيم ، يقوم على الكتاب والسُّنة ، ومن أجل هذا كانت تسميته بـ « حجة الإسلام » تسميةً موفّقةً ، صحيحةً ، ودالّةً ، ودقيقةً ، فى وقتٍ واحد ، وكان همّه أن يساهم فى تحسين حال النّاس ، فكان يحب الفضيلةَ ويحبُّ مجتمعه أن يكون فاضلًا ، ويهْدِف إلى الكمال الإنسانىّ ، الذى غايته سعادة الدنيا والآخرة ؛ فأراد لذلك أن يعلِّم الناسَ حتى يبلّغهم الأهداف التى جعلها غايته ومقصده فى كتابه « إحياء علوم الدين » .

وهو من ناحية أخرى أحد أقطاب التصوّف ، والمجاهدة الروحية ، ورجال التربية والدعوة إلى الله تعالى .

فهو رجل علْمٍ ، وعمل ، ودعوة ، وإصلاح ، وهو أحد (الربانيين) الذين عَلِموا وعَمِلوا وعَلَّمُوا .

وشخصيّةٌ متعدّدة الجوانب كشخصية الغزالى لم يغب عنها حُبُّ الشعر ، ولم يعزب عنها حسن تذوقه والتعبير به عن أفكاره ، وخواطره ، وهواجس نفسه بطريق الشعر .. وقصيدته « المنفرجة »[1] .

قام بتحقيقها الدكتور جلال شوقى[2] معتمدًا على نسختين خطيتين توفرتا له هما :

١ - مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣١٩٨ (٣) الرسالة الثالثة . ويرجع المفهرس هذه النسخة الخطية للقرن ١١ هـ القرن ١٧ م .

٢ - مخطوطة دار الكتب القطرية بالدوحة رقم ٣٦٣ (٧) .

ويرمز لمخطوطة باريس بالحرف (ب) .

ولمخطوطة دار الكتب القطرية بالرمز (د) .

الدكتور عبد المجيد دياب

---

(١) راجع كتاب « مؤلفات الغزالى » للدكتور عبد الرحمن بدوى . الطبعة الثانية - الكويت سنة ١٩٧٧ م صفحة ٢٩٦ . ففيه أكثر من ست عشرة مخطوطة لهذه القصيدة مفرقة فى أنحاء العالم ، أكثرها فى دار الكتب المصرية ومكتبة الأزهر .

(٢) الأستاذ الدكتور جلال شوقى . عميد كلية الهندسة بجامعة قطر .

والقصيدة فى بحث عنوانه : « الشعر فى تراث الغزالى » ضمن كتاب « الإمام الغزالى . الذكرى المئوية التاسعة لوفاته ، بحوث ومقالات بأقلام نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة » . جامعة قطر ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

المصورات

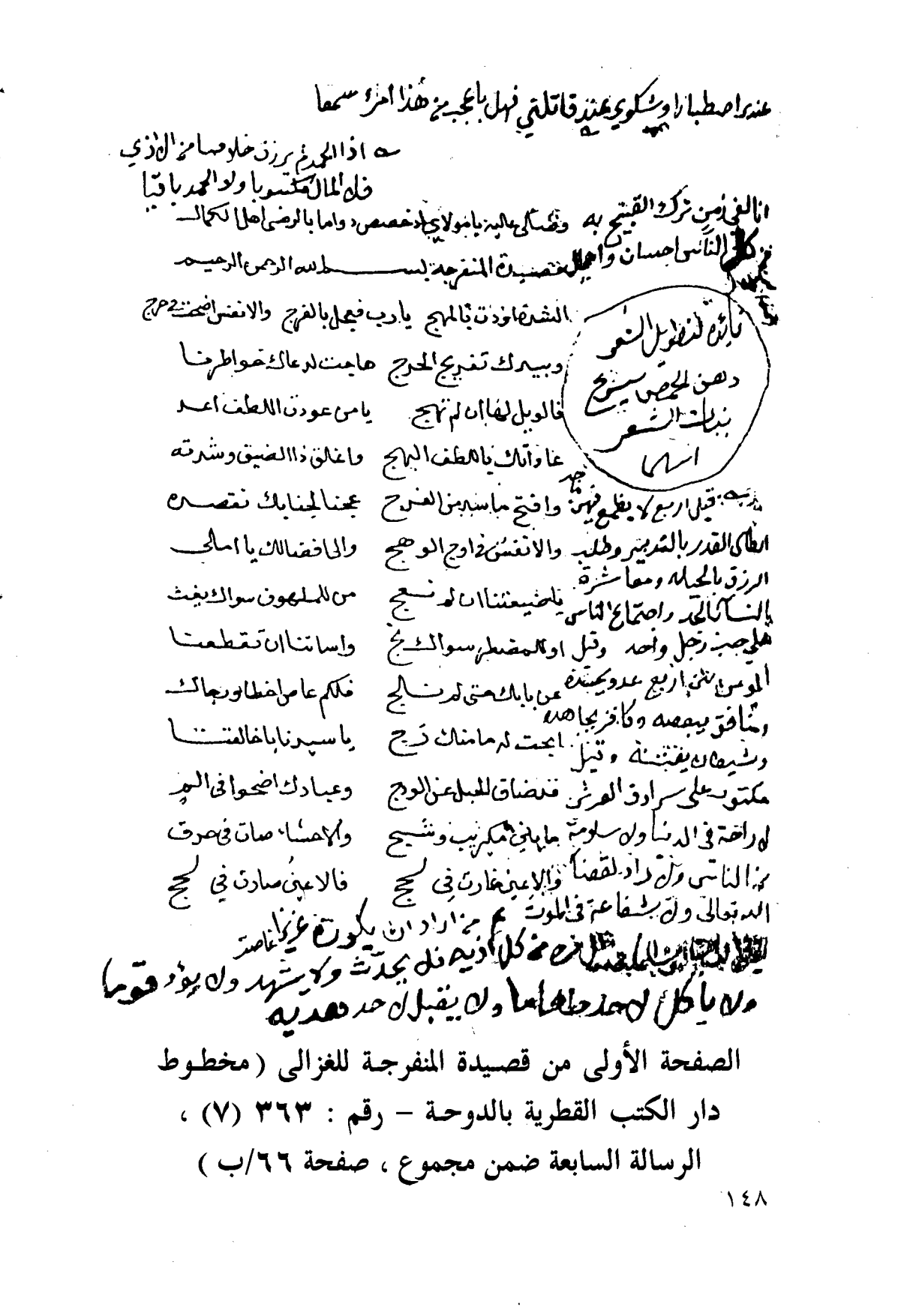

الصفحة الأولى من قصيدة المنفرجة للغزالي (مخطوط
دار الكتب القطرية بالدوحة – رقم : ٣٦٣ (٧) ،
الرسالة السابعة ضمن مجموع ، صفحة ٦٦/ب)

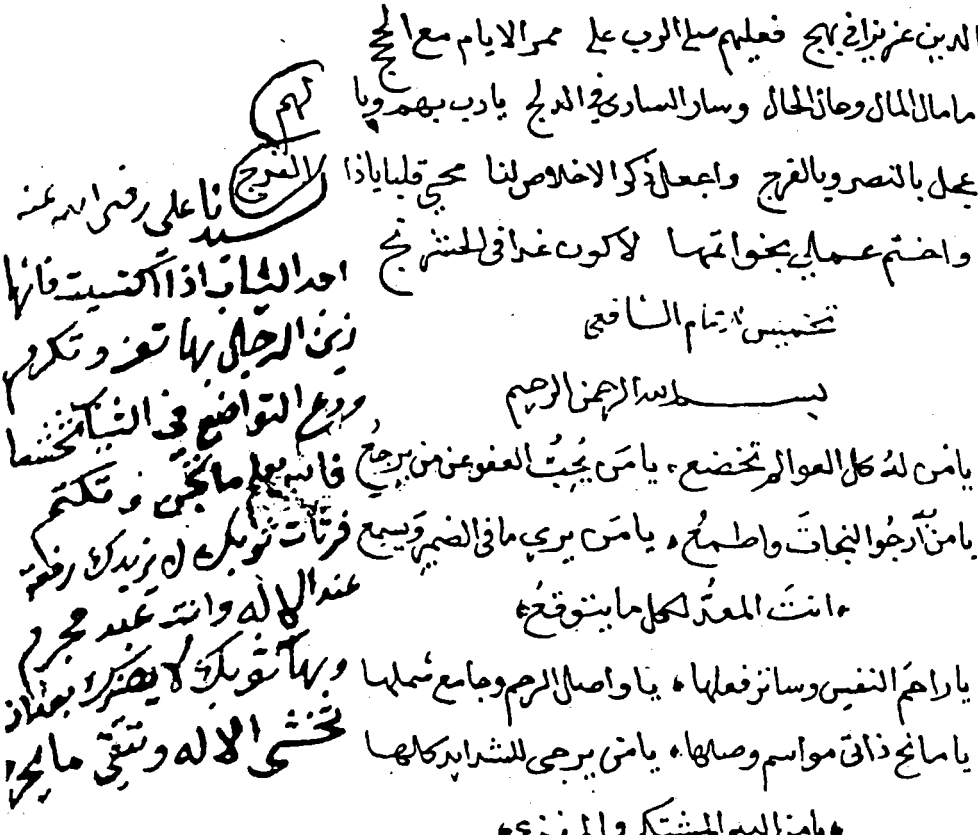

الدين عزيزا في بهج فعليهم صلى الرب على ممر الايام مع الحج
ما مال المال وعال الحال وسار السار في الدلج يا رب بهم ويا
بجمل بالنصر وبالفرج واجعل ذكر الاخلاص لنا محيي قلبا يا ذا
واختم عملي بخواتمها لاكون غدا في الحشر نجي

تخميس الامام الشافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

يا من له كل العوالم تخضع ، يا من يحب العفو عمن يرجع
يا من أرجو النجاة واطمع ، يا من يرى ما في الضمير ويسمع
، انت المعد لكل ما يتوقع ،
يا راحم النفس وسائر فعلها ، يا واصل الرحم وجامع شملها
يا مانح ذا الذنب مواسم وصلها ، يا من يرجى للشدائد كلها
، يا من اليه المشتكى والمفزع ،
يا رب فاعف عن عبيد لم يجن ، يا مسبغا ان لم تكن لي من يكن
يا رب وجهي عن السؤال صن ، يا من خزائن رزقه في قول كن
فانت المعطي وانت الخير عندك اجمع

الصفحة الرابعة والأخيرة من قصيدة المنفرجة للغزالي (مخطوط دار الكتب القطرية بالدوحة – رقم ٣٦٣ (٧) ، صفحة ١/٦٨)

قصيدة المنفرجة

شعر

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

[وصفُ الشّدائِدِ ، والكرُوبِ ، والمِحَن ، وطلَب الفَرَجِ والعفْوِ ، والنّجاةِ منَ اللّهِ والإلحاحِ فى الطّلب]

١ – الشدَّةُ أوْدَتْ بالمُهَجِ يا رَبِّ فَعَجِّلْ بالفَرَجِ

٢ – والأنْفُسُ أضْحَت فى حَرَجٍ وبِيَدِكَ تَفْرِيجُ الْحَرَجِ

٣ – هَاجَتْ لِدُعَاكَ خَوَاطِرُنَا وَالوَيْلُ لَهَا إنْ لَمْ تَهِجِ

٤ – يَا مَنْ عَوَّدْتَ اللُّطْفَ أَعِدْ عَادَاتُكَ[1] باللُّطْفِ البَهِجِ

٥ – واغْلِقِ ذَا الضِّيقِ وشدَّتِهِ وافْتَحِ ما سُدَّ مِنَ الفُرُجِ

٦ – عِجْنَا[2] لِجَنَابِكَ نَقْصِدُهُ والأنْفُسُ فى أوْجِ الوَهَجِ

٧ – وَالِى أفْضَالَكَ يَا أَمَلِى يَا ضَيْعَتَنَا إن لَمْ نَعِجِ[2]

٨ – مَنْ لِلْمَلْهُوفِ سِوَاكَ يَغِثْ أَوْ للمُضَّطَرِ سِوَاكَ نَجِى[3]

٩ – وإساءَتُنا لَنْ[4] تَقْطَعَنَا عَنْ بَابِكَ حتَّى لَمْ نَلِجِ

١٠ – فلَكمْ عاصٍ أخْطَا وَرَجَا كَ ابْحَث لَهُ مَا مِنْك رجى[5]

١١ – يَا سَيِّدَنا يَا خَالِقَنَا قَدْ ضَاقَ الحَبْلُ على[6] الْوَدَجِ[7]

---

(١) فى (ب) : « عداتك » .
(٢) عج يعج بمعنى رفع صوته .
(٣) فى (د) : « نج » .
(٤) فى (د) : « أن » .
(٥) فى (د) : « رج » .
(٦) فى (د) : « عن » .
(٧) عرق فى العنق .

١٢ - وَعِبَادُكَ أضْحَوا فى ألَمٍ ... مَا بَيْنَ مُكَيْرِبٍ [١] وَشجى [٢]

١٣ - والأحْشَا صَارَتْ فى حَرَقٍ ... والأعْيُنُ تَمَارَت [٣] فى لُجَجِ [٤]

١٤ - فالأعْيُنُ صَارَتْ فى لُجَجٍ ... غَاصَتْ فى المَوْجِ مَعَ المُهَجِ [٥]

١٥ - والأزمَةُ زَادَت شِدَّتُهَا ... يَا أزْمَةٌ علَّك تَنْفَرِجِ [٦]

١٦ - جِئْنَاكَ بِقَلْبٍ مُنْكَسِرٍ ... وَلِسَانٍ بالشكْوَى لَهِجِ [٧]

١٧ - وَبِخَوْفِ الزَّلَّةِ [٨] فى وَجَلٍ ... لَكِنْ بِرَجَائِكِ مُمْتَزِجِ

١٨ - فكم اسْتَشْقَى مَرْكُومُ الذَّنْبِ ... بنَشْرِ الرَّحْمَةِ والأَرَجِ [٩]

١٩ - وَبِعَيْنِكَ مَا تَلْقَاهُ ومَا ... فِيهِ الأحْوَالُ مِن المزجِى [١٠]

٢٠ - وَالفَضْل أتْمِمْ - ولكن قَدْ - ... قُلْتَ ادْعُونِى فَلَنَبْتَهِجِ

* * *

[القَسَمُ علَى اللَّهِ تعالَى بهذهِ الأمُور]

٢١ - فَبِكُلِّ نَبِيٍّ نَسْأَلُ يَا ... رَبَّ الأرْبَابِ وكلِّ نجى [١١]

٢٢ - وَبِفَضْلِ الذِّكْرِ وَحِكْمَتِهِ ... وَبِمَا قَدْ أَوْضَحَ مِنْ نَهَجِ

٢٣ - وَبِسِرِّ الأحْرُفِ إذْ وَرَدَتْ ... بِضِيَاءِ النُّورِ المنْبَلَجِ

٢٤ - وَبِسِرٍّ أُودِعَ فِى بَطَدٍ ... وَبِمَا فى وَاحٍ مع زَهَجِ [١٢]

---

(١) مهموم . مغموم .

(٢) فى (د) : « شج » ، بمعنى حزين .

(٣) بمعنى تموج موجًا .

(٤) **اللجج** : معظم الماء أو معظم البحر .

(٥) فى (ب) : « المهجى » الأرواح .

(٦) فى (ب) : « تنفرجى » .

(٧) لهج يلهج . **واللهج بالشىء** : الولوع به .

(٨) فى (د) : « الزل » .

(٩) توهُّج ريح الطيب .

(١٠) فى (د) : « المزج » .

(١١) فى (د) : « نج » ، أى كل من ينجو .

(١٢) بطد ، زهج ، واح : كلمات من كلمات الأوفاق تشغل خانات الوفق المثلث (المربع السحرى ذى الخانات التسع) .

٢٥ - وَبِسِرِّ البَاءِ وَنُقْطَتِهَا مِنْ بِسْمِ اللَّهِ لِذِى النَّهَجِ
٢٦ - وَبِقَافِ القَهْرِ وَقُوَّتِهَا وَبِقَهْرِ القَاهِرِ للمُهَجِ [١]
٢٧ - وَبِبَرْدِ المَا وإِسَاغَتِه وَعُمُومِ النَّفْعِ مَعَ الثَّلَجِ [٢]
٢٨ - وَبِحَرِّ [٣] النَّارِ وَحِدَّتِها وَبِسِرِّ الحُرْقَةِ والنُّضْجِ
٢٩ - وَبِمَا طَعِمْتَ مِنَ التَّطْعِيم وما ضَرَحَتْ مِنَ الضَّرَجِ [٤]

* * *

[دعاءٌ وابتهال]

٣٠ - يَا قَاهِرَ يا ذى [٥] الشدَّة يَا ذى [٥] البَطْشِ أغِثْ يا ذَا الحُجَجِ
٣١ - يَا ربّ ظَلَمْنَا أنْفُسَنَا وَمُصِيبَتُنَا مِنْ حَيْثُ نَجِ [٦]
٣٢ - يَا ربّ خُلِقْنَا مِنْ عَجِلٍ فَلِهَذَا نَدْعُوا باللُّجَجِ [٧]
٣٣ - يَا ربّ وَلَيْسَ لَنَا جَلَدٌ أنَّى [٨] والقَلْبُ عَلَى وَهَجِ
٣٤ - يَا رَبّ عَبِيدُكَ قَدْ وَفَدُوا يَدْعُوك بِقَلْبٍ مُنْزَعِجِ
٣٥ - يَا ربِّ ضِعَافٌ لَيْسَ لَهُمْ أحَد يَرْجُونَ لِذِى الهَرَجِ
٣٦ - يَا رَبّ فُصَّاحُ الأَلْسُن قد أضْحُوا فى الشدَّة كالهَمَجِ [٩]
٣٧ - السَّابِقُ منَّا صَارَ إذَا يَعْدُوا يَسْبِقُهُ ذُو العَرَجِ
٣٨ - وَحِكْمَةُ [١٠] ربِّى بَالِغَةٌ جَلَّت عن حَيْفٍ [١١] أوْ عوجِ

---

(١) الشطر الثانى ناقص فى (د) .
(٢) هذا البيت ناقص بأكمله فى النسخة (د) .
(٣) فى (د) : وبسِّر .
(٤) فى (ب) : « وبما طعمت من التطعيم » . الضرج : الشقّ .
(٥) فى (د) : « يا ذا » .
(٦) فى (ب) : « نجى » .
(٧) اللُّجج : معظم الماء أو معظم البحر .
(٨) فى (د) : « أنّا » .
(٩) فى (د) : « كالمهج » .
(١٠) فى (ب) : « والحكمة » .
(١١) الحيف : الحور والظلم .

٣٩ - والأمْـرُ إلَيْـكَ تُـدَبِّـرُهُ فَأَغِثْنَا باللُّطـف البَهِـجِ
٤٠ - واذْرجْ فى العفْوِ إساءَتَنَـا والـخَيْبَـةَ إنْ لَـمْ تَنْـدَرِجِ

* * *

[حَديثُ لَوْمٍ وعِتَابٍ ونُصْحٍ للنّفْسِ]

٤١ - يَا نَفْسُ وَمَا لَكِ مِنْ فَرَج إلَّا مَـوْلَاكِ لَـهُ فَـعَـجِ
٤٢ - وَبِـهِ فَلُذِى وَبِـه فُـوزى وَلُبَـابِ مَكَـارِمِـه فَلَجِـى[1]
٤٣ - كَىْ تَنْصَلِحِى كَىْ تَنْشَرِحِى كَىْ تَنْبَسِطِى كَىْ تَبْتَهِجِ
٤٤ - وَيَطِيبُ مُقَـامُكِ مَعْ نَفَـرٍ أضْحَوا فى الحِنْدِس[2] كالشَّرجِ[3]
٤٥ - وفُـوا للَّـهِ بِمَا عَهَـدُوا فِى بَيْـعِ الأنْفُس والـمُهَجِ

* * *

[دَعْـوَةٌ لِلاقْتِـدَاءِ بالنَّبِـىّ الهَادِى وآلِـهِ وصَحَابَتِـهِ]

٤٦ - وَهُـمُ[4] الهَـادِى وَصَـحَابَـته ذُو[5] الرّتْبَـةِ وَالعِطْرِ الأرِجِ
٤٧ - وَعَـلَى الصـدِّيقِ خَلِيفَتِـهِ وكَذَا الفَـاروقِ وكُلِّ نـجِ[6]
٤٨ - وَعَـلَى عُـثْمَان شَهِيد الـدّار أبِـى[7] العِرْفَانِ عـلَى الدّرج
٤٩ - وَأَبِى[8] الـحَسَنَيْنِ مَعَ الأوْلَادِ كذا الأزْوَاجِ وكُلِّ شـجِ[9]
٥٠ - قومٌ سكنوا الجَرْعَاء[10] وَهُم شَرَفُوا الـجَرْعَـاء وَمُـنْعَرِجِ

---

(١) فى (د) : « وبه فعزى وبه فلُذى ولباب مكارمه فلج »
(٢) الليل شديد الظلمة حالكها . (٣) الشَّرج بالتحريك : عِرْقُ العيبة .
(٤) فى (د) : « فهم » . (٥) فى (د) : « زى » .
(٦) الأبيات : ٤٧ - ٤٩ ناقصة فى مخطوطة باريس .
(٧) فى (د) : « أبا » . (٨) فى (د) : « أبو » .
(٩) بمعنى حزين . (١٠) الرَّملة المستوية التى لا تنبت شيئًا .

٥١ – جَاءوا للكَوْنِ وَظُلْمَتُهُ عَمَّت وَظَلَامُ الشِّرْكِ دَجِى[1]
٥٢ – مَا زَالَ النَّصْرُ يَحفُّهم والظُّلْمَةُ تُمْحَى بالبَلَجِ[2]
٥٣ – حَتَّى نَصَرُوا الإسْلَامَ وَعَا دَ[3] الدِّينُ عَزِيزًا فى بَهَجِ
٥٤ – فَعَلَيْهِم صَلَّى الربُّ عَلَى مَرِّ[4] الأيَّام مع الحجج
٥٥ – مَا مَالَ المَالُ وَحَالَ الحَا لُ[5] وسَارَ السّارِى فى الدَّلَجِ[6]

* * *

[خَتْمُ الْقَصِيدَةِ]

٥٦ – يَا رَبّ بِهِمْ وَبآلِهِم عَجِّلْ بالنَّصْرِ وبالفَرَجِ[7]
٥٧ – واجْعل ذِكْرَ الإخْلَاصِ لَنَا مُحْيِ قَلْبًا يَا ذَا الفَرَجِ[8]
٥٨ – واخْتِمْ عَمَلِى بِخَوَاتِمِهَا لأكُونَ غَدًا فى الحَشْرِ نَجِ[9] »

* * *

(١) شديد الظلمة .
(٢) الإشراق والإضاءة .
(٣) فى (د) : « وعاد » فى الشطر الأول .
(٤) فى (د) : « ممر » .
(٥) فى (د) : « الحال » فى الشطر الأول .
(٦) مسيرة من أول الليل .
(٧) فى (ب) : « والفرج » .
(٨) هذا البيت ناقص فى مخطوطة باريس .
(٩) فى (ب) : « نجى » ، بمعنى أن أكون من الناجين حين الحشر .

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
تـقـديم	٥
المنـفرجة الأولى لابن النحـوى	٧
يوسف بن محمد بن يوسف التوزرى	٩
قصيدة المنفرجة للتوزرى	١٣
شيخ الإسلام زكريا الأنصارى	١٧
توصيف المخطوطة	٢٧
توصيف المطبوع	٣٠
المصورات	٣١
النّص	٣٧
مقدمة الشارح	٣٩
القصيدة المنفرجة	١٣٩
المنـفرجة الثانيـة للإمام الغـزالى	١٤٣
حجة الإسلام أبو حامد الغزالى	١٤٥
المصـورات	١٤٧
قصيدة المنفرجة	١٥١
فهرس الكـتاب	١٥٧

* * *

صدر للمحقق
كتب مدروسة ومحققة

١ - **إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين** : لعبد الباقى اليمانى (مجلد . طبع فى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض سنة ١٩٨٦م) .

٢ - **شرح ديوان المتنبى** : لأبى العلاء المعرى . « معجز أحمد » (٤ مجلدات . سلسلة ذخائر العرب رقم « ٦٥ » دار المعارف بمصر) .

٣ - **ربيع الأبرار** : للزمخشرى (٥ مجلدات . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب . مركز تحقيق التراث) .

٤ - **الأدب فى الدين** : المنسوب إلى الغزالى (كتاب اليوم - العدد ٣٠٧ - أبريل سنة ١٩٩٠م) .

٥ - **رسالة فى علم الموسيقا** : للصفدى . بالاشتراك (الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١م) .

٦ - **دفع مضار الأبدان عن أرض مصر** : لعلىّ بن رضوان . الطبيب المصرى (نشر مكتبة ابن قتيبة - الكويت سنة ١٩٩٤م) .

٧ - **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** : لجمال الدين القفطى (٢ مجلد . نشر مكتبة ابن قتيبة - الكويت سنة ١٩٩٨م) .

٨ - **تاريخ الأقباط** : المعروف بـ« القول الإبريزى » للعلّامة المقريزى (نشر دار الفضيلة - مصر سنة ١٩٩٧م) .

٩ - **تاريخ اليهود** : من خطط المقريزى (نشر دار الفضيلة - مصر سنة ١٩٩٧م) .

١٠ - **نحل عِبَر النحل** : للمقريزى (نشر دار الفضيلة - مصر سنة ١٩٩٧م) .

١١ - **الأجناس من كلام العرب ، وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى المنسوب** : لأبى عبيد القاسم بن سلام (نشر دار الفضيلة ـــ مصر سنة ١٩٩٨م) .

١٢ - **الحث على طلب العلم ، والاجتهاد فى جمعه** : لأبى هلال العسكرى (نشر دار الفضيلة ـــ مصر سنة ١٩٩٨م) .

١٣ - **مبادئ اللغة مع شرح أبيات مبادئ اللغة** : للخطيب الإسكافى (نشر دار الفضيلة ـــ مصر سنة ١٩٩٩م) .

١٤ - **المنفرجتان** : لابن النحوى والإمام الغزالى (نشر دار الفضيلة ـــ مصر سنة ١٩٩٩م) .

* * *

كتب مؤلفة

١ - **تحقيق التراث العربى** : منهجه وتطوره (الطبعة الثانية - دار المعارف سنة ١٩٩٣م) .

٢ - **أبو الطيب المتنبى** : (سلسلة أعلام العرب - العدد ١١١) .

٣ - **أبو العلاء المعرى . الزاهد المفترى عليه** : (المكتبة الثقافية - العدد ٤٠٥) .

٤ - **خلاصة المتنبى . شرح ودراسة** : (نشر دار سعاد الصباح - القاهرة سنة ١٩٩٢م) .

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٦٠٦١ / ٩٩ م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١